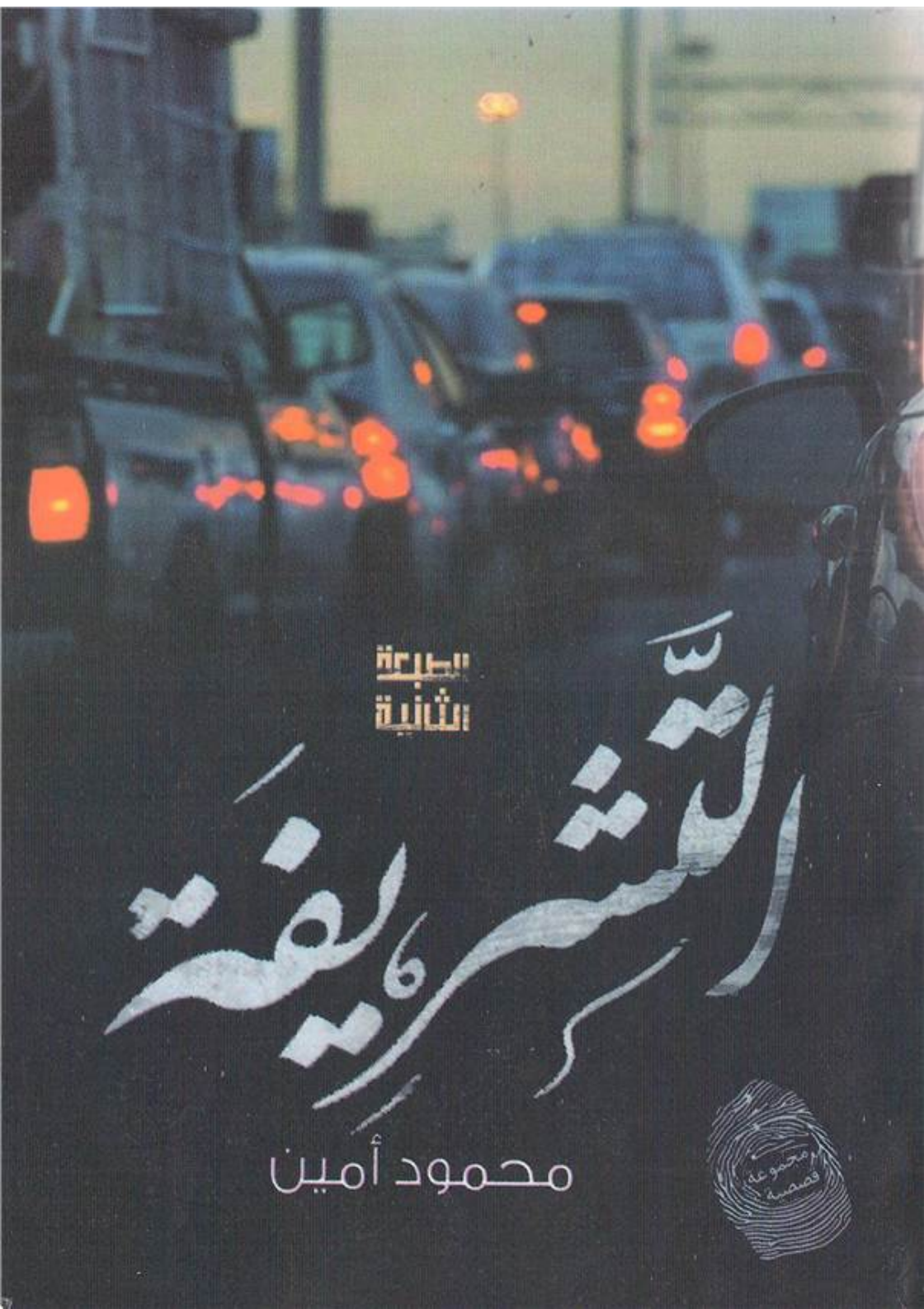
الطبعة الثانية
التشريفة
محمود أمين
مجموعة قصصية

نُشرت معظم هذه المجموعة من قبل في مجموعة قصصية بعنوان نظرات دمية، لكن تمت مراجعتها من جديد وزيادة مجموعة من القصص على هذه المجموعة.

إهداء

إلى شخصٍ لا أعرفه..
كان سيعلمني كثيرًا..
لو قابلته في يوم ما..

لماذا تركت القراءة؟

خمس سنوات وسنة امتياز هي مدة الدراسة في كلية العلاج الطبيعي، لأجد أن المعظم لا يعرف عن العلاج الطبيعي غير الثلج الذي يوضع على كدمات اللاعبين، وكان العامة يسمون دكتور العلاج الطبيعي في هذه الحالة «الراجل بتاع التلج» أو المحفة التي يُحمل عليها اللاعب المصاب، وبالطبع يكون اسمه «الراجل بتاع النقالة».. ربما لولا الاهتمام بمباريات كرة القدم لما سمع أحد أي شيء عن العلاج الطبيعي.. غير المقعدين والمرضى الذين هم في حاجة إليه.

أنا نفسي لم أكن أعلم عن العلاج الطبيعي أي شيء، وقد ذهبت إلى الكلية عن طريق حافلة التنسيق؛ فمجموعي لم يوصلني لأبعد منها.. كنت قد تعرفت عليها من طوابع التنسيق، وبالطبع لم أكن أحلم وأنا صغير أن أصبح «الراجل بتاع التلج» أو «الراجل بتاع النقالة» بل كان حلمي أن أصبح أديبا، فقد كنت أهوى القراءة.. كل الأطفال يريدون أن يصيروا أطباء أو ضباطا إلا أنا، كنت أجمع المال وكأنني تاجر يهودي بخيل لأنفقه كله على الكتب، كانت هوايتي الوحيدة في الحياة هي القراءة، فأنا

لم يكن في مقدوري أن ألعب أي لعبة جسدية مع عويناتي السميكة وجسدي الذي كان نحيلًا، عندما أنظر إلى نفسي الآن لأجد ذلك الكرش الضخم لا أستطيع أن أتذكر متى بدأ في الظهور.. ماتت نحولتي إلى الأبد وكذلك ماتت هوايتي ومات أيضًا حلمي، لا أستطيع أن أتذكر متى توقفت عن القراءة، أحزن أحيانا عندما أتذكر نفسي وأنا جالس أقرأ أحد كتب «فؤاد زكريا» أو «زكريا إبراهيم» الفلسفية أو ترجمة «حلمي مراد» للأدب العالمي، وبالطبع مررت على عمالقة الأدب العربي على مر العصور من «الأصفهاني» و«الجاحظ» إلى «العقاد» و«الحكيم»، كنت أيامها أشعر بلذة قوية لا يمكن وصفها فاقت لذة الطعام والشراب أو فرحة التخرج في الجامعة أو الإحساس بالشماتة في الفتاة التي رفضتك؛ لأنك - ببساطة - شحات، أين ذهبت هذه اللذة؟ وكيف ضاع حلمي بأن أكون أديبا، لا تنقصني الموهبة؟ كانت هذه شهادة كل من قرأ محاولاتي الأولى التي ما زلت أحتفظ بها لأخرجها كل فترة من درج المكتب وأنظر إليها في حسرة، تغير كل شيء بداخلي وخارجي، حتى صوري القديمة ربما تشبهني، لكنها لا تنتمي إليّ.

ربما تركت قراءة الأدب أو محاولة إنتاجه عندما بدأت مرحلة التدريب بعد التخرج، كنت قد التحقت بإحدى عيادات الأساتذة الكبار بالكلية.. كانت العيادة عبارة عن دور كامل في إحدى البنايات الفخمة..

سكرتيرة.. معيد بالكلية سجل رسالته مع هذا الأستاذ وجيش من العبيد.. جيش العبيد هذا قوامه من المستجدين أمثالي الذين يعملون طوال اليوم ليرمي إليهم الأستاذ بالفتات، بحجة أنهم يتدربون والعائد الحقيقي هو الخبرة، أذهب كل صباح أعمل مع المتوحدين وأصحاب الجلطات الدماغية الذين أجريت لهم جراحات.. أعمل طوال النهار حتى إذا جنَّ الليل عدتُ إلى البيت منهك القوى، ظللت على هذا الحال عدة أشهر حتى كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، ذهبت كعادتي في نهاية كل شهر لآخذ الفتات الذي يجعلني - على الأقل - أدفع المواصلات مرتاح الضمير.. عندما تسلمت راتبي من السكرتيرة.. التفتُّ لأنصرف.. وأنا أعده وجدته ناقصا، توقفت وأعدت عده.. هو بالفعل ناقص.. ربما خطأ بسيط، هل أعود؟ بالطبع سوف أسألها عن سبب النقصان.

كانت «سهير» السكرتيرة كائنا مقيتا يهابها الجميع ويمقتها؛ لذلك كان الأستاذ يتمسك بها، وإذا حدث أي مشادة بينها وبين أي أحد من العبيد فهذا معناه ذهاب العبد بلا رجعة، كانت عين الأستاذ في أثناء غيابه، نظرت إلى وجهها المليء بالثغور المغطى بأطنان من البودرة وابتسمت، خرجت ابتسامتي صفراء مهتزة، قلت لها بأدب:

- لو سمحت يا مدام «سهير»..

لم تنظر إليّ لأنها كانت منهمكة في تدوين المواعيد وتوزيع الحالات علينا، أقصد على العبيد بالطبع.. قالت:

- نعم.. فيه حاجة؟

كانت تتبع سياسة «خير الكلام ما قل ودل».. قلت لها:

- أعتقد أن مرتبي ناقص.

فردت دون مبالاة:

- والمطلوب؟

أربكني سؤالها فتلعثمت وقلت لها:

- هو إيه السبب؟

خلعت نظارتها لتظهر أكثر حزما وهي تقول:

- تعليمات الأستاذ؛ لأنك تأخرت يومين.

فكرت في أن ألقي المرتب بوجهها وألوذ بالفرار، لكني لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية، ربما قامت خلفي ولحقت بي، ساعتها لن ترحمني وربما اتهمتني بمحاولة الاعتداء عليها.

تركت العيادة في صمت دون أن أكلم أحدا، وكانت هذه آخر مرة أذهب إليها.

لن أعمل عند أحد ثانية، فأي فائدة أو خبرة تلك التي حصلت عليها؟ لقد حولني الأستاذ إلى تمرجي؛ فالأستاذ هو الذي يشخّص وهو

الذي يصف طريقة العلاج، نحن في النهاية أيادٍ متعددة له.. هو المخ ونحن لا شيء.. لن أعمل عنده أو عند غيره.. حتى الحكومة لن أتسلم التكليف.. تذكرت المثل القائل: «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه». فابتسمت رغما عني وقلت لنفسي: سوف أدفن في ترابه إذا لم يفُتني.

غير مصرح لي بفتح عيادة بمفردي قبل مرور خمسة أعوام، لكن لحسن حظي كان هناك طبيب عظام أعرفه أراد مني أن أشاركه في عيادته.. الترخيص باسمه وسوف يكون لي غرفتي ويحوّل هو لي الحالات التي تحتاج للعلاج الطبيعي.. كان يحول لي حالات كثيرة حتى أستطيع أن أدفع له إيجار الغرفة، لكني بعد فترة بدأت أتعب من الأعمال اليدوية، خاصة بعد أن بدأت أقرأ في التخسيس وكانت هذه بدايتي الجديدة.

التخسيس كاللقيط ليس له أب يعترف به.. رأيت خريجي الطب والأسنان والعلاج الطبيعي والتربية الرياضية والحاصلين على دبلومة في أي شيء خاص بالتغذية يعملون به.

التخسيس مريح ومربح.. يبعدك عن الشلل والكسور.. وعينة المرضى الذين يأتون لإنقاص وزنهم غير المقعدين والمعدمين الذين يأتون لي في هذه العيادة؛ لذلك قررت أن أنتقل إلى عيادة جديدة بنفس الطريقة التي أخذت بها العيادة الأولى، لكن هذه المرة يجب أن تكون في منطقة راقية.

العيادة الجديدة في مصر الجديدة.. يصلح مطلع أغنية هابطة، لكنها الحقيقة.. الآن أصبح زبائني من الصفوة.. على الرغم من وقت الفراغ الذي كنت أعانيه في بداية فتح العيادة فإنني لم أحاول أن أقرأ أي شيء في هذه الفترة.. لماذا لم أعد أقرأ؟

مر عدة أشهر وبدأ الزبائن - كما أحب أن أسميهم - يرتادون العيادة بانتظام.. بدأت أرى نوعا جديدا من الناس لا يعرفون شيئا عن الطبقة التي أنتمي إليها، وشيئا فشيئا بدأت أنساق معهم حتى لا تهتز صورتي أمامهم.

- شوفت حفلة...؟

- طبعا.. كانت رهيبة.

- فيه فيلا معروضة في... وبـ... مليون بس.

- والله؟! دي رخيصة قوي، عنوانها إيه بالظبط؟

تقمصت دورا لا أحبه ولا أحترمه، لكنه عملي الجديد.. ليس له علاقة بالعلاج الطبيعي وليس فيه مما تعلمت بالكلية غير النزر اليسير.. لماذا التحقت بالكلية؟ عملي لا يحتاج لكل هذا التعب والبهدلة، أو بتعبير أرق الخبرة.

لكن ما علاقة هذا كله بهجري للقراءة؟

«أميرة» تأتي إلى العيادة لإنقاص وزنها، على الرغم من أنها ليست ممتلئة بالصورة التي تحتاج لهذا، كانت فتاة عادية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بيضاء.. سوداء العين.. أظن شعرها المختفي تحت طرحتها المربوطة إلى الخلف بحيث تظهر رقبتها له نفس اللون، تضع القليل من المساحيق، فتاة عادية لها اسم عادي وشكل عادي وعقل غير عادي.. هذا ما جذبني إليها، فلأول مرة أجد أحدا غيري يقرأ الكتب التي كنت أقرؤها، بالطبع كان لها بعض الآراء المتحررة، وقد عزوت هذا لتربيتها الراقية.. كانت تأتي غالبا ومعها إحدى صديقاتها.. كانت أجمل منها، لكنها لم تلفت انتباهي مثل «أميرة»، عدت للقراءة مرة أخرى، بالطبع ليس مثلما كنت في المرحلة الثانوية، لكنها محاولة لإزالة الصدأ عن عقلي حتى أستطيع مجاراة «أميرة».

لا يمكن أن أقول إنني أحببتها.. ربما أعجبتني لأنها فريدة من نوعها.. ربما لجرأتها وأسئلتها العميقة التي كانت تطرحها في أثناء المناقشات التي دارت بيننا.

لا، لن أكذب على نفسي، لقد أحببتها، لكني لم أعترف لنفسي بهذا، وإلا لماذا كنت أضع علامة بالأحمر على موعد جلستها وكنت أحاول ألا أضع مرضى آخرين معها أو على الأقل بعدها حتى أجلس معها أطول وقت ممكن.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه بقميص جديد وقد

وضعت على نفسي زجاجة عطر.. أشعر بالسكرتيرة تتغامز مع العامل علي.. هل أنا واهم أم أنها الحقيقة؟ أنا أخشى السكرتيرات؛ فهن يعرفن كل شيء.

جاءت «أميرة» بمفردها اليوم، وكعادتنا ظللنا نتحدث، وبعد انتهاء الجلسة سألتها:

- الأسبوع ده الوزن ما نزلش زي ما إحنا عاوزين، انتي ماشية ع الريجيم مظبوط؟

- أيوه.. هي حبوب منع الحمل بتؤثر في الريجيم؟

باغتني السؤال لأنني أعرف أنها غير متزوجة، لكنني تذكرت أن بعض الحالات المرضية تحتاج لهذا النوع من الحبوب فرددت عليها:

- لا يؤثر.. انتي بتاخديها من فترة طويلة؟

فردت بلا مبالاة:

- لا، أنا لا آخذ الحبوب إلا إذا كان فيه حاجة.

فسألتها ببلاهة:

- حاجة إزاي يعني؟

فهزت رأسها ودارت بعينيها وقالت:

- إيه يا دكتور؟ حاجة من اللي انت عارفها.

فابتسمت نفس الابتسامة الصفراء التي ابتسمتها أمام السكرتيرة عندما كان المرتب ناقصا، وقد فهمت لماذا جاءت اليوم وحدها، ربما لتسأل عن هذا السؤال بالذات أو هي مصادفة.. ربما كانت صديقتها هي الأخرى من أصحاب الحاجات «اللي أنا عارفها».. الآن أصبح من العادي أن أكون عارفها.

خرجت.. ظللت مبهوتا لفترة.. لكنني فهمت الآن لماذا تركت القراءة. وندمت على عودتي إليها.

«لوله»

منذ أن التحق بكلية الطب، وبعد أول يوم له من ولوجه داخل الكلية.. صار الجميع ينادونه الدكتور «شوقي».

هو الآن في السنة النهائية، وحيد والدته؛ فوالده توفي منذ زمن بعيد لا يذكره ولا يحمل له أي ذكرى إلا من بعض المشاهد الضبابية له وهو يقرب وجهه منه ويبعده مداعبا إياه.

كان قد أنهى الامتحانات ويقضي معظم وقته بالبيت.. الشقة التي يقطنها هو ووالدته.. أربع غرف واسعة.. صالة استقبال فتحت عليها غرفة الصالون ليتواكب تصميم الشقة مع تطور العصر.. كان البيت قديما، لكنه شامخ كما هو لم تزحزحه الأيام.. كأنه شجرة كلما مر عليها الزمن زادت جذورها وتشبثت بالأرض أكثر.. لم يكن «شوقي» يشغل باله بالمستقبل.. ترك له والده مبلغا كبيرا بالبنك ينفق هو وأمه من ريعه دون أن ينقص منه شيء.. بل على العكس ينمو.

ليالي الصيف تعني له الشرفة.. ليس له الكثير من الأصدقاء، فهو هادئ أكثر من اللازم.. خجول لأقصى حد.. الولد الذي يربّى وسط البنات

ربما يأخذ من طباعهن.. الذي يربّى بمفرده مع والدته الحريصة فماذا سيكون حاله؟!

وفاة والده لا يكفي أن نقول صدمت والدته، بل نزلت عليها كالصاعقة، فلم تجد سببا يجعلها تستمر في هذه الحياة غير «شوقي».. تمحورت حياتها حوله.. والدته لم تكمل تعليمها وليس لها أي اهتمامات أو هوايات.. امرأة شرقية أصيلة.. ويا لها من أصالة.

كبر «شوقي» بلا أصدقاء تقريبا.. بغير تجارب تماما.. كانت متعته في مشاهدة محطات التلفاز المحلية؛ لأن والدته خشيت عليه من القنوات الفضائية.. و«البلاوي اللي فيها».. على حد قولها.

كان يمل من مشاهدة القنوات المحلية العقيم.. يتذكر ذات مرة برنامجا على إحدى قنوات الأقاليم يتحدث عن فرحة الحاج «عوضين» بقيام جاموسته بالسلامة بعد الولادة.. طلب من والدته كثيرا تركيب طبق لاستقبال القنوات الفضائية لكنها بكت وقالت له:

- دي آخرة تربيتي فيك؟!

ولم يكرر طلبه بعد ذلك.. كانت تبكي لأتفه الأسباب وتُذكره دائما بتضحيتها وأنها رفضت طابورا طويلا من العرسان لو صفوه لوصل حتى أسوان لتتفرغ لتربيته.. كان قد سمع تلك الأسطوانة آلاف المرات وفي كل مرة يذعن لأمه ولا يرد.

لم يكن أمامه إلا الجلوس في الشرفة بالساعات يتأمل المارة ويسمع صوت قهقهة والدته من الداخل أثناء مشاهدتها فيلما كوميديا أبيض وأسود شاهدته قبل ذلك مئات المرات.. هل تنساه؟

كان يتأمل الناس في الشارع، وكلما مرت من أمامه فتاة جميلة يتخيل منظرها بلا ملابس.. كان يستغل في ذلك معرفته العلمية بعلم التشريح والملابس الضيقة التي انتشرت بين جميع الشباب، إناثا وذكورا.. كان يسأل نفسه ربما تقوم الفتاة بارتداء بنطال ضيق لإظهار مفاتنها وإشباع رغبتها في أن تظهر بمظهر الفاتنة الغاوية.. فلماذا يفعل الرجال ذلك؟ على العموم كل له أسباب.

كان يتأمل في السائرات عرايا عندما مرت «لوله» من أمامه.. في بادئ الأمر كان يرقبها في أثناء مرورها ويشب على قدميه ليظل ينظر إليها حتى تختفي تماما.. كانت دائما ترتدي ملابس شديدة الضيق تظهر جميع ثنايا جسمها وتعظم تضاريسها، لم يكن اسمها الحقيقي «لوله».. لكنه الاسم الذي اشتهرت به في الشارع.. كانت إذا مرت تعلقت الأبصار بها، ليس فقط نظرات الشباب الأعزب بل أيضًا المتزوجين والطاعنين في السن.. لاحظ «شوقي» هذا عندما كفَّ عن ملاحقتها ببصره ليجد متعة أخرى في مراقبة المراقبين لها.. حتى عم «إبراهيم»، صاحب محل الألبان، الطيب العجوز التقي، يختلس النظرات إليها إذا مرت من أمام الدكان، أما إذا

جاءت لتشتري منه أي شيء يطيل معها الحديث في أي شيء.. لاحظ «شوقي» ذلك، وكذلك لاحظته «لوله» وافتخرت به.. فإعجاب عم «إبراهيم» بها ونظراته إليها تدل على أنها لا تُقاوَم.. كان هناك حديث دائر أمام دكان عم «إبراهيم» حول جائزة نوبل التي حصل عليها العالم المصري «أحمد زويل»، بالطبع كان رأي عم «إبراهيم» أنه عميل وكان يقول لمحدثه:

- هو فيه مسلم بياخد جايزة «نوبَل»؟

كان ينطقها بفتح الباء، وهو ما يدل على عمق فكري خاص.. فرد عليه محدثه وقد اعتقد أنه حاصر عم «إبراهيم»:

- طيب ما السادات أخدها.

فهز عم «إبراهيم» رأسه وابتسم وهو يقول:

- عشان عمل سلام مع اليهود.. هو فيه مسلم يعمل سلام مع اليهود؟

هكذا كانت فتوى عم «إبراهيم» بإخراج الحاصلين على جائزة نوبل من الملة.. وقفت «لوله» أمام عم «إبراهيم» وقالت له:

- كيلو لبن يا عم «إبراهيم».

دب الحماس في الرجل ونسي محدثه وانطلق إلى داخل المحل وقد تهللت أساريره وبدأ في محاولاته في جذب أطراف الحديث معها.. كان

«شوقي» يسأل نفسه عن السبب الذي يجعل عم «إبراهيم» يحاول التحدث معها.. إنه يشك في قدرته على رؤيتها بوضوح.. يموت الزمار وأصابعه تلعب.. كانت «لوله» قد تخرجت في أحد المعاهد التي لا يُعرف ماذا يُدرس بها أو ما العمل الذي يمكن أن يقوم به الخريج فيها.. وعلى الرغم من ملابسها ومساحيق التجميل.. مع أنها ليست في حاجة إليها.. لم يستطع أحد الاقتراب منها.. أقصى ما يمكن أن تفعله هو أن ترميها بكلمة في أثناء سيرها دون أن تلتفت هي وسوف تجد من ينهرك حتى يظهر بمظهر الشهم أمامها، لكنها لا تلتفت لا للشهم ولا لغيره.. كأنها مكتوب عليها «للعرض فقط».. كانت تحاول أن تضع هالة حول نفسها لترفع قيمتها السعرية في الشارع حتى إذا أتى أحد وتقدم للزواج منها تطلب بقلب جامد.

* * *

حاول «شوقي» أن يجد لنفسه هواية جديدة، فصار يشتري جريدة الغد كل ليلة.. يتمشى قليلا ويضيع الوقت في قراءة العناوين عند البائع ثم يشتري أي صحيفة، وأحيانا يشتري بعض المجلات التي لا يقرأ فيها الكثير، بل يشاهد الصور.. طبعا تفر والدته المجلات لتتأكد أنها خالية من الصور الخارجة عن السياق الذي تربى فيه.. كانت هناك ذات مرة صورة

رجل أجنبي يرتدي سروالا قصيرا.. فظلت أمه توبخه وبالطبع حاول أن يفهمها أنه رجل.

- هو أنا عامية؟ دي بنت زي القشطة أهي.. دي آخرة تربيتي فيك؟!

فازداد حذره لأنه لا يريد أن يغضب والدته.

نزل «شوقي» في تلك الليلة كعادته وقالت له والدته ألا يتأخر كعادتها، وأمرته بأخذ المحمول حتى إذا تأخر اتصلت به.. عند مدخل العمارة سار إلى أنفه عطر أنثوي ساحر حرّك قشعريرة في جسده.. ووجد عند المدخل «عماد» جاره الذي لا يحب أن يقابله يتحدث إلى أحد الأشخاص غير الظاهرين من أمام باب العمارة.. كان «عماد» دائما ما يضربه أمام البيت ليستعرض رجولته أمام الفتيات وهم صغار.. على الرغم من أنهما كبرا وتخرج «عماد» في كلية التجارة - حبيبة الملايين - وجلس بعد ذلك في البيت بجانب أمه حتى وجد فرصة عمل بمحل ملابس بمرتب ضئيل.. لكن المحل بالقرب من البيت.. على الأقل لن يضيع المال في المواصلات.. إلا أنه ظل بمقته ويشعر بداخله بالتشفي كلما تذكر أنه سيصبح طبيبا مشهورا، في حين أنه لن يزد على بائع في محل.. كان «شوقي» على الرغم من مقته له يندهش لأنه استطاع أن يتعامل مع الواقع المرير ويلقي بالشهادة في سلة المهملات ويعمل بائعا في محل.

- أهي كلها تجارة.

رد مريح على أي حال.. عندما لمحه نادى عليه بصوت مرتفع مع أنه لا تفصله عنه غير أمتار قليلة:

- دكتور «شوقي».

نظر إليه «شوقي» واقترب من الباب ليسلم عليه، وعندما وصل إلى الباب رأى مع من كان يتحدث «عماد».

كانت أخت «عماد» وصديقتها «لوله».. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يراها واقفة مع «عماد» الذي يتحين الفرص للحديث معها.. كان «شوقي» يحاول أن يقنع نفسه أنها لا تستلطفه بل هو من يطاردها ويستغل صداقة أخته لها.. لو كانت تستلطفه فسيلقي بنفسه في سلة المهملات.

- ازيك يا «عماد»؟

فربت «عماد» على كتفه وكأنه طفل صغير، فشعر «شوقي» أنه يقصد إهانته أمامها فاستأذن وهمّ بالانصراف فاستوقفه «عماد» وقال له:

- كنت عايز استشارة بسيطة.

فرد عليه «شوقي»:

- تحت أمرك.

فقال له «عماد»:

- ممكن على جنب بس؟

وأخذه - بعد أن وضع يده على كتفه - وبدأ يتحدث معه عن مشاكله مع البروستاتا والعادة السرية.. كان «شوقي» يعلم أنه يسخر منه ويحاول إحراجه بالحديث في هذه الأمور التي تصيبه بالحرج.. رد عليه «شوقي» أي رد وذهب.. في الطريق كان الحنق يقتله.. لماذا تقف «لوله» معه؟

هل لو تقدم لخطبتها سوف تقبله؟ إنه دائما يسخر منه ويحاول «شوقي» أن يعزي هذا لغيرته.. لكنه في الحقيقة هو الذي يغار منه.. إنه أنجح منه.. أغنى منه.. أفضل منه في كل شيء.. لكنه يغار منه.

وقف عند بائع الصحف الذي حفظه.. شارد الذهن لا يرى شيئا حتى أخرجه من ذهوله رنين هاتفه.. بالطبع كانت والدته.

- ألو.. أيوه يا ماما.. لأ أصلي قابلت «عماد».. لأ جاي على طول.. كيلو واحد بس؟ حاضر.

كان يتحدث إليها وهو يدفع ثمن الشيء الذي لا يعلم ما هو، وبالطبع لن يقرأ فيه لأكثر من دقائق.. وفي أثناء عودته توقف عند عم «إبراهيم» لشراء اللبن كما أمرته والدته.

- كيلو لبن معاك يا عم «إبراهيم».

كان الصوت الناعم الذي مرّ من خلفه هو صوت «لوله» التي من الواضح أنها قد أنهت حديثها للتو.. كان يريد أن ينظر إليها، خاصة أنه

شعر وكأنها تنظر إليه.. أنظر أم لا أنظر؟! وماذا سيحدث إذا نظرت وكانت لا تنظر؟ الأهم ماذا لو رأيتها تنظر لي؟ سوف أصاب بالصرع الفوري.

- ازيك يا دكتور «شوقي»؟

إنها تتحدث إليّ أم يخيّل إليّ؟!

- نعم.. أنا.. هو.. بخير.

أخذ اللبن وانصرف.. علمت «لوله» خامته على الفور لخبرتها الواسعة في هذا المجال.. فأخذت هي الأخرى اللبن وسارت بسرعة خلفه قائلة:

- كان عندي استشارة.

يا ليلة سوداء.. لو كانت من عينة استشارات «عماد».. حتى أنت يا «لوله»! رد عليها وقد ارتفعت درجة حرارة الجو أكثر عندما اخترق عبيرها دفاعات أنفه:

- تحت أمرك يا آنسة.

أعجبتها الكلمة وأعجبها أكثر افتتانه بها، الذي كان واضحا حتى للمارة فحكت له عن جدتها المريضة، بالطبع مجموعة منتقاة من أمراض الشيخوخة: ضغط، سكر، قلب، تولان.

- ممكن تيجي تشوفها؟

كاد يصرخ من الفرح وسط الشارع لكنه قال لها:

- طبعا.. تحت أمرك يا آنسة «لوله».

- ممكن آخد نمرتك؟

عرف الآن فائدة المحمول غير إزعاج والدته له، فأعطاها الرقم واتصلت هي به وهو واقف ليسجل رقم هاتفها.

- مرسي يا دكتور، مش عارفة أشكرك إزاي.. باي.

وهمت بالانصراف، لكنها عادت وقالت له:

- على فكرة أنا اسمي «نادية».. لكن «لوله» منك مقبولة.

انصرفت لتتركه وقد غرق تماما فيها.. ظل متجمدا في مكانه حتى أيقظه من أحلامه صوت الهاتف.. نظر وكان بالطبع المتصل والدته فضغط على زر قطع الاتصال ودخل العمارة.

الغريب أنه لم يلحظ أن هذه هي أول مرة يقطع الاتصال مع والدته.. حتى إن كان على باب الشقة.. كان إما يرد وإما يتركه يرن حتى يصل إليها فتسمعه لتقطع هي الاتصال.. كانت أول مرة، لكنها ليست الأخيرة.

* * *

كان «شوقي» يتمزق أمام هاتفه المحمول.. ذلك الشيء الصغير التافه يعذبه.. ينظر إلى الأرقام المكتوب فوقها «لمعي» طوال النهار.. لم يرد أن يكتب «لوله» أو «نادية»؛ لأن والدته كثيرا ما تأخذ هاتفه وتظل

تقلب في الأسماء.. صمم أن يختار لها اسما يبدأ بحرف اللام، فلم يجد غير «لمعي».. بالطبع كان الاسم كفيلا بجعل والدته تشك فيه، لكن لحسن حظه أنها لم تقُم بتقليب الأسماء منذ زمن.. ربما نسيت هذه العادة.

مر يومان على هذا الحال عكف فيهما على الجلوس في الشرفة وتأمل الهاتف.. كان يجلس بالليل في كامل ثيابه لعله يراها فينزل إليها ويمر بجانبها لعلها تتحدث إليه كما بادرت هي في المرة الأولى.. لكنها لم تعد تمر.. حتى عم «إبراهيم» يظنه يفتقدها.

كان يرضى رؤيتها من بعيد وينهشها بعينيه كما يفعل الجميع.. يحترم القاعدة التي يعرفها الجميع مع الجميلات: ممنوع الاقتراب، لكنه الآن هو بالذات يمكنه الاقتراب.

بعد صراعه الطويل مع المحمول قرر أن يضغط على زر الاتصال.. رن الهاتف طويلا بلا رد.. ترى ألا تريد الرد عليه؟ قال لنفسه: لن أطلب الرقم ثانية.. لكنها كانت تمسك بالهاتف في منزلها وتنظر إليه في انتصار وتعلم أنه سوف يطلب ثانية.. في هذه المرة ردت عليه لأنها تعلم أنه متردد.. ظهر عليه انتظاره يومين من تلعثمه أمامها.. ومن خجله الزائد.

- أيوه.

- آنسة.. «لوله».. أقصد «نادية»؟

- أفندم.. مين حضرتك؟

- أنا «شوقي» جاركم في الشارع.

هل نسيتني؟ لا يمكن أن تنساني بهذه السرعة.. ربما لم تسجل رقم الهاتف.

- دكتور «شوقي».. ازي حضرتك؟ عامل إيه؟

- الحمد لله.

ثم ساد الصمت وكأنها تسأله بصمتها: ماذا تريد؟

- أصلك بقالك مدة ما ظهرتيش.. قلت أطمن عليكي.

- متشكرة جدا.

ثم أضافت مداعبة:

- انت بتراقبني بقى؟

أخجله السؤال فخرجت منه همهمات غير مفهومة فقررت هي أن هذا يكفي فقالت له:

- جدتي مريضة جدا ومش عارفة أعمل إيه، أصل أنا معاها لوحدي.

وبالطبع تطوع الطبيب الشاب أن يأتي لزيارتها، فقالت له أن يأتي الساعة الرابعة.. كانت تريد أن يكون موعد غداء ليأكلا معا.

ظل «شوقي» يفاضل بين ملابسه وينظر في خزانة ملابسه حتى ظن أن كل ملابسه صارت فجأة لا تصلح للخروج.. هذا قديم.. آخر لونه غريب.. ما هذا؟ كأنه متسخ.. حتى ظن أن عليه أن يشتري ملابس

جديدة، لكن الوقت لا يسعفه.. هنا تذكر القميص الهدية الذي جاءته به والدته في عيد ميلاده.. قرأ عليه «نصف كم» وهذا ما جعله لا يرتديه حتى الآن، فهو لا يحب أن يرتدي هذا النوع من الملابس حتى في الصيف.. لكن كل شيء يهون من أجل «لوله».

ارتدى ملابسه ولمّع حذاءه ثم وضع لأول مرة أدواته كطبيب في الحقيبة الجديدة التي اشترتها له والدته.. الآن الطبيب جاهز.

ماذا سأقول لوالدتي؟ إنها لا تعرف شيئا عن أي شيء، لكنها ليست ساذجة.. سوف تشعر.. أظنها تستطيع أن تشم «الأدرينالين» المتدفق في عروقي.. أنا مدعو لمؤتمر من أحد أساتذتي و... أي شيء.. لكنها ستشعر.

كان كلّما حاول أن يكذب عليها تشعر به بمجرد شروعه في الكذب، وكان هذا يخيفه منها، ليس لأنه يحب الكذب عليها.. لكن لإحساسه أنه يصدُقها القول لأنه لا يستطيع عكس ذلك.

مضت به خطواته الثقيلة إلى أمه، حيث تشاهد التلفاز.. فيلم لإسماعيل ياسين.. كان هذا ما طمأنه قليلا، فقد كانت تشاهد هذا النوع من الأفلام وتستغرق فيه على الرغم من رؤيتها له مرات كثيرة قبل ذلك.

وقف خلف الكرسي الذي تجلس عليه حتى لا تراه وقال:

- أنا نازل يا ماما رايح مؤتمر دعاني ليه الدكتور «عبد المجيد رضوان».

من «عبد المجيد رضوان»؟ لا يهم، فهو لا يعرف أحدا بهذا الاسم المهم.. إنه أجاب على السؤال: «رايح فين؟» قبل أن تسأله.

- خلي بالك من نفسك، بس اوعى تتأخر.

لم يصدق نفسه.. عندما أغلق الباب خلفه أحس أنه حر لأول مرة في حياته.. لماذا يجب أن يكذب ليشعر بهذا الشعور؟

انطلقت به خطواته سريعا، حيث البناية التي تقطن بها ولم تشر الساعة بعدُ إلى الرابعة.. لكنه لا يستطيع الانتظار ولا يستطيع الصعود قبل موعده.. انتظر قليلا تحت البناية والعقارب تسير على مهل.. الوقت يتدلل عليه ويأبى المضي.. ماذا لو قابلت «عماد»؟ سوف أتظاهر بربط الحذاء.. خدعة عتيقة يبدو أني تأثرت بأفلام أمي.

عقد عزمه على الاتصال بها والصعود، وعلى العموم لم يبق على الرابعة سوى خمس دقائق.. يرن الهاتف ومعه يدق قلبه.. يظن أن صوت قلبه أعلى من رنين الهاتف.. هل يسمعه أحد غيري؟

- ازيك يا دكتور؟

قالتها بمجرد أن فتحت الخط، وبلهفة أحرقته، فرد عليها بخجل:

- الحمد لله.. هو أنا تحت البيت، ممكن...؟

قاطعته قائلة:

- انت بتستأذن عشان تطلع بيتك؟ طبعا اتفضل أنا... قصدي إحنا مستنيينك.

دق جرس الباب ليسمع خطواتها المتسارعة من خلفه ثم صمت لثوانٍ قبل أن يسمع الصوت المميز للسان الباب، وبرزت هي ببهائها وضيائها ليشع النور والدفء على قلبه اليابس.. هذا وأكثر ما كان سيقوله لو علم الشعر.. كان سيكتب القصائد في حبها وجمالها.

أدخلته وأغلقت الباب من خلفه ليجد شقة مرتبة ونظيفة.. البيت القديم لم يمنعهم من تجديد الشقة.. بعض المظاهر التي تنبئ بمحاولة يائسة لجعلها تظهر بمظهر راقٍ.. لوحة زيتية لشيء لم يتبينه.. تحفة هنا.. أشياء فضية متناثرة هنا وهناك.. هل الشقة على هذا الحال دائما؟

دخل الصالون وأجلسته ليحف ثوبها به عن عمد وهي ذاهبة لإحضار ما يشربه.. لم تكن ترتدي البنطال الضيق كعادتها بل ترتدي فستانا جعلها أكثر أنوثة وتحفظا من ملابسها التي ترتديها في العادة.

عادت في ثوانٍ وكأن كل شيء كان معدًّا من قبل.

- اتفضل يا دكتور.

- متشكر جدا.

لم يكن يعنيه أن يعرف كنه ما يشرب، بل كان يحاول أن يجتذب معها أطراف الحديث.. حكت له عن والدها ووالدتها.. يعملان في إحدى

الدول العربية مدرسا ومدرسة.. والدتها في الأصل مُدرسة لغة عربية، أما والدها فهو محاسب.. لكن عندما سافرا معا على أنه مرافق الزوجة لم يجد غير العمل مدرس حساب بمدرسة ابتدائية.. عاشت مع جدتها منذ أن كانت في المرحلة الثانوية.. لم تقل له لماذا عادت هي فقط إلى القاهرة.. لكن يبدو أن ارتفاع مستوى المعيشة في تلك الدولة حال دون استمرار تعليمها هناك.

حكى هو عن والده المتوفَّ وعن والدته التي ضحت من أجل تربيته.. سمعته وقد ظهرت عليها آيات الانبهار بوالدته، حتى إنها قالت له:

- يا ريت ينفع أقابلها.. دي لازم ست عظيمة.

أخذهما الحديث ونسيا جدتها حتى قال لها:

- يعني انتي عايشة لوحدك مع جدتك؟

- أيوه بابا وماما ما بيجوش غير آخر السنة.. هما عموما قربوا ييجوا.

- طيب مش هاشوف جدتك؟

فقالت له مداعبة:

- يعني انت طلبت؟ أنا قلت إنك طنشت.

فضحكا معا لدعابتها.. إنها تبدو أجمل وهي تضحك.. ليست كل الفتيات كذلك.. بعضهن يظهرن مثل أسماك القرش أو خلد الماء في أثناء الضحك.

لم تكن جدتها في حاجة إلى الكشف لأنها من الأساس لم تشعر به.. علم «شوقي» أنها اقتربت من المحطة الأخيرة.. وعلى العموم فكل شيء بيد الله.. العلاج الذي تأخذه كاف حتى يجعل النهاية غير مؤلمة قدر الإمكان.. وهذه الحقن لن تغير كثيرا.

- البنت اللي في الأجزخانة بتيجي تديها الحقنة لكني مش مستريحة لها.

وطبعا أصبحت الحقن في غاية الأهمية.. يجب أن يأتي بنفسه ليعطيها لجدتها مرتين - على الأقل - في الأسبوع.

كانت الساعة الخامسة والنصف، ورأى أن عليه الذهاب، لكنها صممت أن يتغدى معها.. كان والداها - كما قالت - سوف يعودان قريبا؛ لذلك كانت تريد أن تنتهي منه سريعا قبل عودتهما.

* * *

صار يتردد عليها كثيرا ليرى جدتها مرة.. ومرات يجلس بجانبها دون حتى أن تأتي سيرة العجوز النائمة بالداخل ولا تشعر بشيء.. كان يجلس بجانبها ليشاهد معها التلفاز.. ذلك العالم الذي منعته عنه والدته.. علم أنه كان على حق عندما زهد القنوات الأرضية وتأكد أنها كانت تحت أرضية وليست أرضية فقط.. هل أمسك يدها؟ هي من أمسكت يده في

البداية حتى أدمن التقاط يدها بين يديه فأصبحت لا تفارقه.. أحس أنه يحلم أنها الجنة على الأرض أم أنه في السماء؟

لا تشغل بالك بالتفكير.. بالطبع قبّلها.. كانت قبلة طويلة أشعلت نار الرغبة بداخله.. لم يكن يريد أن يتركها، لكنها فجأة دفعته ووضعت وجهها بين كفيها وأجهشت بالبكاء.

- أنا آسف يا «نادية».. ما كانش قصدي.

أحس أنه من الممكن أن يفقدها الآن ولم يتخيل ماذا سيفعل إن حدث هذا.. فقدان حياته أهون عليه.

- بابا وماما راجعين الأسبوع الجاي.

فرد عليها بشجاعة غير معهودة منه:

- وإيه المشكلة؟

فزاد بكاؤها وقالت:

- مش هقدر أشوفك تاني.

فابتسم وقال وهو يحتضنها:

- بالعكس، إحنا بعد كده هنشوف بعض براحتنا ونخرج سوا.. أنا كنت مستني رجوعهم عشان نتخطب.

فتهللت أساريرها واختفت الدموع وقبّلته هي هذه المرة قبلة جعلته يود لو يتزوجها الآن.

كانت تعامله بمبدأ التذوق وأخذ العينات، لكن المنتج نفسه يحتاج للدفع أولا.. وكان عنده القدرة والرغبة.

* * *

مر الأسبوع بكامله يقنع فيه والدته بالزواج من «نادية».. كان قد كف عن استعمال اسم الشهرة حتى تظهر بمظهر أكثر وقارا.. كان اعتراض والدته أنها تخرجت في معهد والطبيب يجب أن يتزوج طبيبة:

- مهندسة ماشي.. مدرسة زي أمها ممكن.. لكن معهد لأ.

لكنه أصر، ولأول مرة تتزحزح والدته بعد أن رأت منه إصرار اليهود ومراوغتهم التي لم تعهدهما عليه من قبل.

وكان الميعاد.. لم تكن والدته تعلم شيئا عن سمعتها «الطيبة» في الشارع؛ لأنها كما هو واضح منفصلة عن الواقع؛ لذلك لم تندهش عندما رأت احتشام «نادية» وطرحتها الطويلة وعينيها التي لم تُرفعا عن الأرض.. كان الحديث من جانب واحد: والدة «شوقي» تتحدث والجميع يقول لها: حاضر.

- «نادية» بنتك.. والدكتور ابننا.

كانت كلما سمعت «الدكتور» أخذتها الجلالة.. تم الاتفاق على عمل الخطوبة قبل سفر والد «نادية» ووالدتها.

- والشبكة في حدود قد إيه؟

سألتهم والدة «شوقي» فردت «نادية» لأول مرة بصوت منخفض خجل:

- مش مهم شبكة خالص.. دي هدية منه على كل حال.

وعند الصائغ كان يجب أن تكون الهدية من مقام «شوقي».. دكتور «شوقي» من فضلك.

* * *

لم يأتِ أي أحد من زملائها بالمعهد إلى حفل الخطوبة.. كأنها تريد الانسلاخ منهم.. لأنها مرت على الكثير من الزملاء وأغاظت معظم الزميلات.. اقتصر الحفل على الأقارب، فلا يوجد جيران حتى لا يأتي «عماد».. بالطبع لأن «شوقي» لا يحبه.. ليس لا سمح الله لأن «نادية» عندها شيء تخفيه عن «شوقي».. لماذا يجب أن تسيء الظن بها؟!

مر العام بسلام لا يشوبه إلا بعض المضايقات من والدته وكأنها تغار من «نادية» حتى عاد والداها من جديد وطلبا من «شوقي» إحضار شقة ليتزوج فيها.. وهذا طلب منطقي، فبالطبع لن يتزوج في الشارع.

- ولو حتى أوضة وصالة إيجار جديد.

فسكت «شوقي» قليلا ثم قال بصوت متهدج:

- وأمي؟

فردت عليه «نادية» التي كانت تجلس معهم:

- مالها الحاجة؟

- أسيبها لوحدها؟

- بص يا «شوقي».. أمك على راسي من فوق، لكن بصراحة مش ممكن أعيش معاها، وانت عارف ومتأكد إنه ما ينفعش وعارف ليه.

- لكن...

فقامت وكأنها ستبكي وانصرفت.. وجلس مع والدها ووالدتها في صمت حتى استأذن وانصرف.

* * *

- عايز تسيبني بعد ما ضيّعت عمري عليك؟ دي آخرتها؟ عايزة تاخدك مني بنت الجزم؟

- بلاش غلط يا ماما، طريقتك دي هي اللي مخوفاها منك.

- هي لسه شافت حاجة؟ أنا هوريها.

واتصلت بها على الهاتف النقال خاصتها.. بالطبع قالت الكثير قبل أن يأخذ «شوقي» - الذي لم يكن يسمع غير والدته - الهاتف منها ويعتذر.. لكنها كانت تبكي بشدة وأغلقت الخط.

- انت كمان بتتأسف لها بعد قلة أدبها معايا؟

- هي عملت لك إيه؟

- ما انت ما كنتش سامعها.

- بس سمعت منك اللي فيه الكفاية.

وترك لها البيت وخرج.

* * *

دق جرس الباب ففتحه والد «نادية» مبتسما كعادته وقال:

- أهلا وسهلا.. ازيك يا حاجة؟

فردت بخجل وكأنها طفل أخطأ وجاء ليتأسف:

- الحمد لله.

عندما ترك «شوقي» البيت واستأجر غرفة ثم عاد ليأخذ ملابسه بكت أمه كثيرا وقبّلت يده.. لكنه أصر أن تصلح أولا ما أفسدته.. ما الذي جعله بتلك القسوة؟!

جلس الجميع بغير «نادية» التي دخلت إليها والدتها مرات كثيرة حتى وافقت على المجيء.

- مال بقى عروستنا زعلانة ليه؟

- متهيألي حضرتك عارفة.

- حقك على راسي يا بنتي، لكن لو كنتي مكاني كنتي عملتي أكتر من كده، ده أنا ما حيلتيش غيره وتعبت عليه وأنا...

ثم أجهشت بالبكاء.. لم يشعر «شوقي» بالشفقة عليها، بل شعر بالخجل من طريقتها في استجداء العطف.. لتظهر «نادية» بمظهر رقيقة القلب.. أخرجت دمعة واحتضنت أمه وقالت لها:

- خلاص يا ماما ما تعيطيش، هنعيش معاكي بس:نتفق بقى اتفاق من الأول عشان ما نزعلش من بعض بعد كده.

ونظرت إلى «شوقي» بما يعني: هل ترى ما أضحي به من أجلك؟

- أنا موافقة على أي حاجة بس تعيشوا معايا.

وبدأت «نادية» بسرد الميثاق الجديد.. للزواج السعيد.

* * *

إيه ده؟ كارت دعوة.. يدعوكم.. هممممم.. حفل زفاف الآنسة نادية فرحات عبد المتجلي على الدكتور شوقي سليمان النجدي.. المكان... المكان... يا نهار أبيض، أو بالأصح أسود، الفندق ده غالي قوي، بس الأكل فيه حلو، لازم أروح.. هو الفرح ده متكلف كام؟ أنا مالي؟ خليني في حالي.. بس تلاقيه متكلف ياما.

بلا صوت

- ربع ساعة على نمرة «ممدوح».

نظرت في المرآة إلى وجهي المبتسم دائما بغض النظر عن حالتي النفسية.. أخذتني الذكريات بعيدا عن الضوضاء والموسيقى من حولي.. عندما نظرت إلى الجريدة تذكرت لماذا أتيت إلى هنا وكيف انتهى بي المآل على هذا الحال.

* * *

عندما كبرت قليلا لم أكن أعرف ماذا يعني الأب أو الأم؛ لأني تربيت في دار للأيتام.. قيل لي إنهم وجدوني في ليلة صيف على باب الملجأ؛ لذلك لم أستطع أن أتخيل أمي تضعني على الباب والسماء تمطر بشدة والجو شديد البرودة كما يحدث في كل الأفلام كأنه يجب أن يجتمع عليك الترك والبرد.

لم أغضب يوما من أمي التي لا أعرفها ولا أعرف كيف تكون مشاعري نحوها أو مشاعرها نحوي.. الأب لا يأتي في مخيلتي إلا نادرا؛ لأن

جميع الأفلام التي رأيتها تتحدث عن الأم.. لا أستطيع تصور رجل يأتي بالليل ليضع الرضيع على باب الملجأ مع أن هذا وارد.

أسأل نفسي كثيرا: لماذا تُركت هكذا؟!

هل أنا نتيجة لعلاقة محرمة، أم كان لي أهل وماتوا فلم يبق لي غير الدار مأوى؟

أتخيل أحيانا أنني ضعت.. هكذا بمنتهى البساطة كما يضيع أي شيء.

مرت السنوات حتى وصلت إلى سن الإدراك فلم يتم إلحاقي بمدرسة كباقي زملائي بالدار؛ لأنني لم أستطع الكلام.. لم يعلم أحد السبب أو يحاول أن يعرف.. أنا نفسي لا أعرف هل السبب عضوي أم نفسي.. لسبب ما اعتُبرت معاقا ذهنيا.. قامتي القصيرة.. رأسي الكبير بالنسبة إلى جسدي المكور الصغير.. عدم قدرتي على الكلام.. كانت كلها أسبابا جعلتهم يحكمون عليّ بالعته.

مرت بي الأيام ثقيلة لا أتحدث إلى أحد، وبالطبع لن يتحدث إليّ أحد؛ لأني لن أرد عليه.. مع اعتقادهم بعاهتي لم يحاول أحد أن يلحقني بإحدى مدارس ذوي الاحتياجات الخاصة التي لم أكن أعرفها وقتها ولم يكن ذلك بسبب ضعف الإمكانات كما كان يدعي مدير الدار، بل كان بسبب أن التبرعات كان معظمها يوزع مباشرة على الإدارة.. لذلك

وجدوني مفيدا على حالتي هذه حتى أستدر عطف الناس فأكون سببا لأخذ ما في جيوبهم.

كنت أحس بالمهانة كلما أدخلوا علينا سيدات بكعوب عالية وملابس فاخرة وعطر يملأ المكان لينظرن إلينا في شفقة ثم يتحدثن إلى مدير الدار الذي رسم على وجهه أعتى علامات الأسى:

- ربنا يبارك لك يا أستاذ «حمدي».. أنت تتعب كثيرا بسبب هذه الدار.

فيرد بخشوع وهو يضع عينيه في الأرض:

- أستغفر الله.. كله بثوابه.

ويذهب معها الأستاذ «حمدي» إلى المكتب ليأخذ ما في النصيب.. كنت لا أرى فارقا كبيرا بينه وبين «الكاتعة» التي يعمل الأطفال المشردون عندها شحاذين.. الفارق الوحيد الملابس والمكان، أما المبدأ فواحد.

كان الأستاذ «حمدي» - كما يناديه الجميع - قد تخطى الخمسين بقليل.. أصلع وله كرش كبير.. لا يرتدي العوينات على الرغم من ضعف بصره.. كثير الكلام والأكل والتحرش بالعاملات.

على الرغم من كثرة فضائحه لا يقترب أحد منه.. على الرغم من أنه لم يحصل على شهادة جامعية لا يسأله أحد عن المؤهل الذي جعلهم يعينونه مديرا للدار.

قيل إن له أخا مهمّا أراد أن يريح باله منه فتوسط له للعمل في الدار، وكلما كان يرتقي الأخ المناصب بات من الواجب أن يرتفع الأستاذ «حمدي» حتى يليق بمنصب أخيه.

عندما تصل إلى المرحلة الإعدادية تنتقل من هذه الدار إلى أخرى يلتحق بها من هم أكبر سنا؛ لذلك ارتحل كل من أعرف وبقيت أنا.

لا أدري هل نُسيت لأني لم ألتحق بالمدرسة أم لشكلي الصغير! كانوا يعاملوننا كالخراف: وتم شحن الطلبية إلى الدار الجديدة.. أصبح الدار جاهزا لاستقبال عدد جديد من الأيتام، بما يعني تبرعات جديدة وسرقات كبيرة.

كان الأستاذ «حمدي» يعرف قصتي ويعتبرني كالآخرين أبلهَ أو معتوهًا.. وقد اتفقت مع نفسي أن أسايرهم ما داموا يريدونني على ذلك الحال.. لظنه هذا اختارني الفرّاش الخصوصي له، فأنا أملك جميع المواصفات المناسبة لتلك الوظيفة: الخرس.. البله.. الضعف.. صغر الحجم والسن.. ثم إنني لن أكلفه مليما فوق قوت يومي.

وهكذا نزلت درجة أخرى في سلم الآدمية فصرت بلا أي تجميل الخادم اليتيم.. كنت أتحمل إهاناته المتكررة ونظرات الشفقة في عيون الموظفين بالدار.

كل ما يخطر ببالك كنت أتحمله وكنت أقول لنفسي: إلى أين سأذهب؟

هذا كله لم يجعلني أفكر في الهرب..

حتى كانت تلك الليلة..

كان يبيت أحيانا بالدار في غرفة وثيرة ملحقة بمكتبه، على الرغم من أنه متزوج ولم ينجب.. بالطبع لم يكن يبيت بالدار كما كان يدعي لمباشرة بعض الأعمال، بل ليقضي ليلته مع إحدى العاملات نظير مبلغ من المال.

جلس على مكتبه وأخرج من درجه حبة زرقاء اللون ابتلعها ثم قال لي:

- نادي «نجوى».

تسمرت مكاني.. كنت أريد أن أقول له إن الوقت متأخر وأظنها نامت، لكني بلا صوت؛ لذلك هو مطمئن لي.

خرجت من المكتب لأجدها بالخارج.. إذًا فهي تعلم أنه سيطلبها.

دخلت وأغلقت الباب خلفها وانتظرت أنا بالخارج.. سمعت بعض الكلمات والصراخ ثم وجدتها تهرع إلى غرفتها وهي تبكي في أسى.. ألم تكن تعلم سبب طلبه لها أم أنه طلب منها شيئا جديدا في تلك الليلة؟!

أحسست به يحملني من ياقة قميصي ويرميني إلى الداخل ثم ينهال عليّ باللعنات والركلات والشتائم واللكمات.. لا.. ليس هذا ما جعلني أفر من الدار..

لكنه خلع عني سروالي ثم أجلسني على فخذه العارية وقضى في شهوته.. هل هذا سبب كافٍ للهرب؟

* * *

- نمرتك يا أستاذ «ممدوح».

أغلقت الصحيفة التي تتحدث عن التحقيق مع مدير إحدى دور الأيتام في مخالفات مالية وجنسية بعد بلاغ مقدم من أحد العاملين بالدار.. هل كانت المخالفات المالية فقط هي التي لها علاقة بالموظف أم الجنسية أيضا؟

الجديد أن هذا البلاغ لم يقدَّم إلا بعد أن ترك الأخ المهم منصبه وكان كبش فداء لآخرين.. أظنهما سيتقابلان في السجن، فقد انتهت مهمتاهما.

نظرت إلى وجهي المبتسم دائما.. لماذا؟

لأني أعمل الآن مهرجا بالسيرك.. كنت كل يوم أضحك الناس على الرغم من حزني، لكنني اليوم على درجة من الرضا.

المهم أني وجدت عملا يتناسب مع قدراتي.. غير الخادم أو مفرغ الشهوات.

القصف

وصل «عبد المجيد» - كعادته - قبل موعد وصول باقي الموظفين.. كان يفضل المجيء قبل موعده، فهذا خير له من أن يتأخر عنه فيتعرض للتقريع من مدير المصلحة.. والأمر لا يحتمل التقريع.. يكفي ما يلاقيه خارج المصلحة.. في المواصلات يتعلق بيده ليظل أنفه تحت إبط جاره في الحافلة.. يكفي تقريع زوجته له من بعد منتصف الشهر لضعف الوارد واكتساح المتطلبات اليومية له.. كان يتمنى أن يكفيه الراتب ولو لمرة واحدة حتى نهاية الشهر دون حاجة.. وزوجته لا ترحم.. جاره في الحافلة لا يرحم.. مديره في العمل لا يرحم.. منتخب كرة القدم لا يرحم ويخسر باستمرار.. وسيصيبه ذلك بالجلطة في يوم من الأيام.

جلس «عبد المجيد» على مكتبه يتأمل حاله.. يندب حظه ويتذكر نظراته للسيارات من الحافلة كل يوم وهو ذاهب إلى عمله فيقول لنفسه:

- ماذا يعمل هؤلاء حتى يستطيعوا شراء مثل هذه السيارات؟!

يظل في تأمله حتى يصل زملاؤه.. من بعدهم يأتي المواطنون الأشرار ليرهقوه بمطالب لا تنتهي.. كذلك كان يراهم «عبد المجيد».. كان

المواطنون هم المادة الخصبة لتفريغ شحنة الحنق والمقت التي تصيبه كل صباح.

- هذا الورق ناقص.. هذا من اختصاص الأستاذ... المهم أنه غير موجود..

كان ناقما على حاله.. تكسره الفاقة والعوز.. لا يشعر بقيمته في غير الحديث بطريقة سيئة في وجه أصحاب المصالح والحاجات..

- السلام عليكم.

انتزعه السلام من تأملاته فنظر إلى صاحبه ليرى رجلا في الأربعينات.. هزيل الجسد تظهر عليه آيات الإعياء.. فوقع في مخيلته أنه ربما يكون أحد أصحاب المصالح فرد عليه:

- لم يصل الموظفون بعدُ.. مر بعد قليل.

فقال له الرجل:

- لا يا سيدي.. أنا كنت أريد أن أسأل عن الأستاذ «أشرف».

كانت لكنة الرجل غير مصرية، ما جعل الفضول يدق بابه.. وماذا يريد هذا الرجل من «أشرف»؟

- هو لم يأتِ، لكنه على وصول.. تفضل اجلس.. يمكنك انتظاره.

- لكني لا أريد أن أعطلك.

فابتسم «عبد المجيد» لأول مرة منذ دخول الرجل وقال له:

- تعطلني عن ماذا؟ لم يبدأ العمل بعد.

فجلس الرجل أمام المكتب على مهل.. كانت علامات الإعياء تظهر عليه.. الفضول يأكل «عبد المجيد» فأراد أن يفتح الحديث مع الرجل فقال له:

- تبدو متعبا.

فرد عليه الرجل بصوته الواهن:

- الحمد لله.

بالطبع لم يشفه الجواب فقال له:

- ونعم بالله.. ولكنك متعب.. ما لك؟

فرد عليه الرجل:

- لقد خرجت للتو من المستشفى.

فسأله في دهشة:

- ألم يكن من الممكن أن تظل حتى منتصف اليوم؟ لماذا خرجت مبكرا هكذا؟

فقال له الرجل:

- كنت سأخرج بالأمس، لكني فضلت أن أبيت هناك ثم أخرج في الصباح الباكر لأعود مباشرة إلى بلدي.. ليس لي مكان هنا أبيت فيه.

فشعر «عبد المجيد» بصدق حدسه.. هذا الرجل ليس مصريا.. فسأله وكأنه لم يكن يتوقع:

- إذًا أنت لست مصريا.. من أين إذًا شرفتنا بتلك الزيارة؟

فابتسم الرجل في أسى ورد عليه:

- من غزة.

فبُهت «عبد المجيد».. كان يشعر بإحساس غريب عندما يسمع أي شيء خاص بفلسطين: الخوف.. الخزي.. التجاهل.. اللامبالاة.. ما فلسطين؟ هل هي أكلة جديدة؟

سأله «عبد المجيد» بعفوية:

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟

فرد عليه الرجل:

- قصة طويلة لا أريد أن أصدع رأسك بها.

- لا.. لا.. بالعكس أنا أحب أن أسمعها.

بالطبع من باب الفضول، فقال له الرجل:

- على العموم سوف أحكيها لك باختصار.. عندما كنت شابا أتيت إلى مصر لأكمل دراستي.. كان «ياسر عرفات» لا يزال على قيد الحياة وكان هناك منح تقدَّم من الجامعات المصرية للطلبة الفلسطينيين تدفعها دول عربية أخرى أو تتكفل بها مصر.. بعد أن أنهيت دراستي كان «ياسر

عرفات» قد تُوفي - أو قُتل كما يتوقع الكثيرون - تم إلغاء المنح.. لا أدري هل السبب موت «عرفات» أم أنهم رأوا عدم وجود جدوى من تعليمنا.. فنحن نموت في النهاية تحت القصف الإسرائيلي على كل حال.. المهم عدت إلى غزة وعملت بالشرطة وترقيت بالعمل حتى حدث الشقاق بين «فتح» و«حماس».. بعد ذلك الحرب على غزة.. كانت إسرائيل تستخدم أسلحة محرمة دوليا كانت السبب بإصابة الكثيرين بأمراض خبيثة.. عدت إلى مصر ثانية وكنت أحتاج لعملية زرع نخاع.. تعرفت إلى الأستاذ «أشرف» عن طريق الجمعية الخيرية التي هو عضو بها.. تكفلوا هم بتكاليف العملية وخرجت اليوم فأردت أن أشكره وأسلم عليه قبل أن أذهب إلى رفح.

لم يكن «عبد المجيد» يعلم أن الموظف الشاب الجديد «أشرف» الذي يراه شابا عديم الخبرة له هذا النشاط الإنساني؛ لذلك أصابته الدهشة من حديث الرجل عنه بتلك الطريقة وقال له:

- ولكنك مُتعب، كيف تستطيع السفر وأنت على هذا الحال؟ وماذا ستعمل هناك؟

ابتسم الرجل في أسى وقال له:

- يمكنني أن أتحمل مشقة السفر، المهم أن أصل إلى غزة.. كلنا هناك أسرة واحدة كبيرة، وهذا ما يهوّن عليّ فقدي زوجتي وأولادي في حربهم الأخيرة على غزة.

سأله «عبد المجيد» في خجل:

- هل تعتقد أن لنا ذنبا في ما يحدث لكم؟

اندهش الرجل من السؤال وقال له:

- لماذا تسأل هذا السؤال الغريب؟

- لا أعرف، لكننا الآن نشعر بصورة ما أن لنا يدا في ما يحدث لكم ولو بالصمت.

- نحن ندعو الله لكم أن يرفع عنكم ذلك البلاء.

خيّم عليهم صمت مطبق بعد كلمات الرجل التي بها إشارة إلى قلة الحيلة والخنوع.. ترى ماذا أو من يقصد بالبلاء؟ دخل «أشرف»، وما إن رأى الرجل حتى تهللت أساريره وسلّم عليه وكذلك سلم على «عبد المجيد» الذي سلم عليه بحرارة على غير عادته.. ثم أخذ الرجل إلى مكتبه وجلس معه وقد بدأت الحياة تدب في الغرفة.

كان «عبد المجيد» مبهوتا.. كان يسمع عن القصف الإسرائيلي المتواصل للمدن الفلسطينية.. يرى الشهداء كل يوم على شاشات التلفاز.. لكنه في قرارة نفسه يشعر كأنهم من عالم آخر.. لم يكن قد رأى أحدهم

رأي العين؛ لذلك ظلت عيناه معلقتين بالرجل وقد لاحظ دمعة تفر هاربة من مآقيه و«أشرف» يضع مبلغا من المال في يده.. التقت عيونهما وهو خارج من الغرفة فحياه بمودة أكثر بكثير من التي استقبله بها.

قام «عبد المجيد» واتجه نحو «أشرف» الذي اندهش عندما رآه يسحب كرسيا ويجلس إلى جواره..

- أرجو ألا أكون أعطلك.

- بالطبع لا يا أستاذ «عبد المجيد».. أنا تحت أمرك.

لم يكن «عبد المجيد» يريد أن يتحدث عن شيء محدد، بل شعر أنه يريد أن يتحدث إليه في أي شيء.. وفي أثناء حديثهما دخل الساعي مسرعا وقال لـ«أشرف»:

- أستاذ «أشرف».. الرجل الذي كان يجلس معك وقع في الشارع لا ينطق وأولاد الحلال نقلوه إلى المستشفى.

فانطلق «أشرف» إلى الخارج..

وحدث شيء أدهش الجميع..

بكى «عبد المجيد» على الرجل الذي لم يعرفه سوى دقائق معدودة.

ليس اليوم

كان «صلاح» مدرسا شابا تخرج في الأساس في كلية الهندسة قسم الميكانيكا، لكنه لحظه العاثر تخرج في فترة كساد ظن أنها لن تطول.. لكنها امتدت إلى ما لا نهاية.. لم يجد عملا.. كان من يعمل من زملائه إما من أرباب الواسطة - وهم معظم الذين وجدوا عملا - وإما من أصحاب المواهب النادرة الفتاكة التي ليس لها مثيل.. حتى هؤلاء ربما وجدوا فرصة للعمل أو ألقي بهم في سلة النسيان إلى طابور البطالة الطويل الذي يتمنى أصحاب المقاهي ألا ينتهي.. لكن القدر كان يخبئ له خطة بديلة.

وكر الذئاب.. سوف يأخذ قوته من فم الأسد.. لا لن يعمل بالسيرك.. سوف يعمل بالتدريس.. كان له أحد الأصدقاء قد تخرج في كلية العلوم قسم الكيمياء.. وبالطبع لم يجد عملا وضاع لسنوات بين مصانع البويات ومحال بيع المواد الكيماوية والمشاريع الخاصة حتى قابل شخصا ثالثا.. هذا الثالث خريج آداب ولم يجد عملا.. وهكذا نجد أن جميع الخريجين يعملون بالتدريس ما عدا الذين يفترض بهم التدريس.. والمدارس الخاصة تفضل من يرضى عنه التلاميذ بغض النظر عن مؤهله أو المادة التي

يشرحها بل لا يهم أن يشرح من الأساس؛ لأن المدرسة في جوهرها أصبحت ناديا ترفيهيا للسادة التلاميذ، فلا يجب إزعاجهم بمثل هذه الأمور.

حصل «صلاح» على وظيفة مدرس حساب بالمرحلة الابتدائية كتجربة.. على أن تتم ترقيته إلى المرحلة الإعدادية إذا كان تقرير التلاميذ عنه أنه خفيف على قلوبهم.. ربما يبتسم له الحظ ويجد نفسه بعد سنوات قليلة وحش الرياضيات للثانوية العامة أو رأفت هجان الإحصاء أو حتى الكابتن ماجد أو كعبول.. لا يهم.. المهم أن يجد اسمه على أحد المراكز.. هو الآن كعبول لأنه مدرس ابتدائي.. لكنه يأمل أن يصبح رأفت الهجان في يوم من الأيام.

راتب المدرسة ضعيف، على الرغم من أنها مدرسة خاصة تأخذ على الرأس الواحد الآلاف.. لكن صاحبه أخبره أن الاعتماد الأساسي على الدروس الخصوصية.

يبدو أنه أعجب السادة التلاميذ؛ لأنه بعد مرور أقل من أسبوع جاءه والد أحدهم يطلب منه درسا في مادة الحساب فوافق على الفور وأخذ منه العنوان.. لكنهما لم يتفقا على السعر.. فذهب إلى صديقه الحكيم ليسأله فرد عليه بخبرة المحاربين القدماء:

- يجب ألا توافق مباشرة دون أن تقول له: دعني أرَ جدولي أولا.. حتى إن كنا في بداية العام؛ فجدولك مزدحم حتى في العطلة الصيفية.. أهم شيء الدقة في المواعيد.. حتى إذا ذاع صيتك وأخذت الخبرة الكافية يمكنك أن تتأخر كما تشاء بل تذل الطالب الذي تريد هو وأهله ومدير المدرسة وصاحب المركز وربما مدير المديرية إذا كان يريدك أن تعطي ابنه درسا.. المهم بالنسبة للأسعار هذه غلطتي؛ فقد نسيت أن أكتب لك أسعار العام.. فكل عام نزيد الأسعار، فكما تعلم التضخم والجنيه ذاهب في ستين داهية.. سوف أكتب لك سعر الحصة - فنحن الآن نعمل بالحصة - لكل سنة دراسية.

* * *

كما نصحه صاحبه حكيم الدروس الخصوصية.. ذهب قبل موعده وتعرف على العنوان ثم جال قليلا بالمنطقة ليجد مقهى قريبا من البيت.

المقهى - كما أخبره - شيء أساسي في حياة المدرس.. عليه ينتظر إذا وصل مبكرا.. فيه يمكنه أن يستريح بعد الدرس أو قبله.. يمكنه شرب كوب الشاي الضابط للتفكير إذا كان - لا قدر الله - شاي الأم شديد السوء.

عمل بنصائحه التي علت على تعاليم «بوذا» إذا كان بوذيا وصارت أقيم من قصص الحكيم «إيسوب».. وجد ضالته في مقهى بلدي في شارع مجاور لبيت الزبون.. على الرغم من أن المنطقة كانت راقية فإن المقهى

لم يكن يختلف عن أي مقهى في منطقة شعبية، وهذا ما يلاحَظ في كثير من الأحياء الراقية.. تجد مقهى وكأنه قد اقتُطع من حي آخر.

ألف المقهى لبساطته واختار مكانا بالقرب من بابه.. كان المكان يؤهله لرؤية الشارع ومن فيه دون أن يلحظه المارة.. عندما نظر في ساعته علم أنه قد أتى قبل موعده بكثير.. كان قلقا لا يعرف كيف سيطلب المال من الرجل.. ماذا سيقول له إذا طلب منه أن يخفض ثمن الحصة؟ بالتأكيد الرجل يعرف الأسعار، لكنه ربما سيختبره، فإذا وافق فهو ليس على دراية بسعر السوق..

- طلبت يا بيه؟

انتزعه صوت النادل الذي كان يمر كالنحلة بين الموائد، يمسح واحدة ويضع طلبا على أخرى.

- شاي مضبوط من فضلك.

هل سيعجب الولد بشرحه؟ لقد ظل طوال الليل يقلب الأمر في رأسه.. خفقات قلبه العالية تنذره وكأنه يدخل امتحانا صعبا.. هو بالفعل يعتبره كذلك.. إذا نجح هذا الولد فسيكون بداية السمعة الطيبة التي يبتغيها.. ولا يعلم كيف مرت الدقائق ثقيلة بطيئة حتى حانت لحظة الحسم.

* * *

فتح باب المصعد.. اتجه نحو باب الشقة يقدم رِجلا ويؤخر الأخرى، ثم تذكر أنه لا يعرف ماذا سيقول لمن يفتح له الباب؟

- أنا أستاذ «صلاح» مدرس الحساب.

كانت التي فتحت له الباب سيدة صفراء.. ليست صفراء اللون.. لكنها من الجنس الأصفر.. بالطبع الخادمة.. سمعها تقول:

- مدرس «الماث» وصل.

قالتها بعربية ركيكة ونطقت كلمة حساب بالإنجليزية.. جلس على أحد المقاعد الفارهة وظل يتلفت حوله.. كان يشعر أنه دخل أحد المتاحف.. تماثيل.. لوحات جدارية.. فضيات.. أشياء أخرى لا يعرف ما هي أو مما صنعت أو ماذا يصنع بها.. هل هذا الشيء المعلق لبيسة أحذية؟! أيقظه صوت كعب حذاء يدق بقوة على الأرض الرخامية ليجد سيدة شابة ترتدي قميصا بلا أكمام وتحته بنطال ضيق وقصير بالكاد يصل تحت ركبتها بقليل.. هل هذه أم الولد؟ يا له من محظوظ.. يا ليتني كنت الولد.

- أهلا يا أستاذ «صلاح».. أنا والدة «هيثم».

ومدت يدها لتصافحه فصافحها بيد مرتعشة وهو يقول:

- أهلا بحضرتك.

جلست أمامه واضعة ساقا فوق الأخرى فجلس بعد أن كان قد وقف لاستقبالها فقالت له:

- «هيثم» يحبك جدا.. ويشكر في شرحك.

فهز رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة فاستطردت:

- لكن للأسف هو تعبان مش ممكن ياخد الحصة النهارده.. بالمناسبة هو نظام الحساب هيبقى ازاي؟

أصابه الإحباط بعد أن منّى نفسه بأجر الحصة.. لكنه حاول ألا يظهر عليه وهو يتفق معها على أجره، وبعد أن وافقت على أجر الحصة بعد تململ قالت له:

- المهم يجيب درجات كويسة، أنا نفسي يطلع مهندس زي باباه.

مهندس؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ «صلاح» مهندس لكنه الآن مدرس.. في الحقيقة لم يعمل مهندسا قط.. «هيثم» يختلف.. هذا المستوى يمكّنه من فتح مصنع أو شركة أو رأس من يريد.

- المهم إننا اتعرفنا.. ثواني هجيب لك حق الحصة.. كفاية إنك تعبت نفسك وجيت.

حاول أن يثنيها من باب المجاملة.. فوافقت على الفور ثم اتفقا على الميعاد المقبل.

* * *

في اليوم التالي قابل صاحبه فأخبره بما حدث معه ليستشيره في أمر ثمن الحصة الذي رفضه فقال له في حدة وهو يهز رأسه في ضيق:

- أكبر غلطة إنك ما خدتش تمن الحصة.. بعد كده تروح أي حتة يبقى ترجع بتمن الحصة عشان يحرَموا يعملوا معاك نظام فوت علينا بكرة واللي عايز يلغي يلغي من قبلها مش تبقى تحت البيت ويقولك أصل فيه ضيوف، الواد قلبه بيوجعه، أصله عنده ماتش بلاي ستيشن.. مش مهم.. ما حدش بيتعلم بالساهل.. أنا برده غلطان إني ما نبهتكش من الأول.. أصل انت طيب والشغلانة بتاعتنا دي مش عايزة لا الطيب ولا اللي بيتكسف.. المهم هي أمه حلوة؟ أصل أنا عارف العيال بتوع ابتدائي دول بتبقى أمهاتهم لسه صغيرين.

كان «صلاح» ينظر إليه في أسى ويقول لنفسه:

- هل سأصبح مثله بعد سنوات؟

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا.

موائد القمامة

مؤهل عالٍ.. حسن المظهر.. طويل.. قوي البنيان.. لا يزيد العمر على خمسة وعشرين عاما.. يجيد إحدى اللغات الأجنبية.. يقبل العمل بنظام الورديات ليلا أو نهارا.. حسن السمعة.. لم تكن هذه الصفات المطلوبة من إحدى الفتيات في صفحة «يا بخت من وفق راسين في الحلال».. بل كانت هذه هي أهم الصفات التي ذُكرت في إعلان شركة أمن خاصة لطلب موظفي أمن.. بالطبع مؤهل عالٍ، فقد أصبحوا أكثر من الهم على قلوب الفقراء وأصحاب الحاجات.. من الذي لا يطلب مؤهلا عاليا؟ عندما تقدم «حسن» للوظيفة قال له والده:

- بعد كل هذه المذاكرة والتعب تذهب للعمل بواب أفرنجي؟

فرد عليه بلا مبالاة:

- لم يعد هناك فرق.. تعلّم أو لا.. ما دام ليس لك واسطة لن تجد العمل المناسب.

كان والده يسكت كلما لمح له بأنه لو كان من أصحاب العلاقات ربما كان وجد له عملا، لكنه للأسف موظف شريف بالتعليم لم يكن من

أصحاب الأدراج المفتوحة أو الذمم الواسعة؛ لذلك كان مكروها من الأغلبية العظمى، خاصة الزملاء بالعمل.

- هل تعلم كم ألف يتخرج في كلية التجارة كل عام؟ كيف سيتم إيجاد فرص عمل لكل تلك الآلاف كل عام؟ المهم ادعُ لي أن يقبلوني هم بالوظيفة.

- ربنا يقدم ما فيه الخير.

وربما كان الخير في أنهم قبلوه بالوظيفة.

* * *

أول عمل له في مجمع للفيلات على طريق القاهرة - السويس.. كانت هناك بالطبع مجموعة من التعليمات الصارمة التي حفظها عن ظهر قلب وظل يراجعها طوال الطريق وهو يركب حافلة الشركة الصغيرة التي تنقله هو وزملاءه إلى المدينة الصغيرة ثم تعيدهم إلى مقر الشركة بعد انتهاء ورديتهم وتذهب بغيرهم.

كانت الشركة التي يعمل بها هي المسئولة عن تأمين المدينة بالكامل، لكنه عندما وصل إلى هناك علم أنهم للديكور ليس أكثر من ذلك؛ فكل صاحب قصر- وقد لاحظ أن تلك المساكن أكبر بكثير من كونها «فلل» - له حراسة خاصة.. أقلهم يسير ومعه ثلاثة أفراد الواحد منهم ضعف حجم «حسن».

تسلم «حسن» عمله بالوقوف طوال النهار في أحد أكشاك الحراسة، وبعد أن وقف بقليل لاحظ أن الرجل الواقف بأقرب كشك له ينظر إليه من نافذة الكشك التي ليس لها زجاج ثم قام واتجه نحوه.. عندما اقترب منه الرجل لاحظ أن الشعر الظاهر من تحت قبعته أشيب وفي مشيته عرجة خفيفة.. خمّن أنه ربما قد جاوز الخمسين.. لكن كيف يعمل هذا الرجل مثل ذلك العمل؟

- أهلا بالضابط الجديد.. ما اسم الكريم؟

فرد عليه «حسن» وهو يتلفت حوله:

- «حسن».

فقال له الرجل:

- عاشت الأسماء يا «حسن».. أنا «فتحي» أقدم موظف في الشركة، كلهم ينادوني عم «فتحي» حتى البيه صاحب الشركة.. لماذا تتلفت حولك هكذا وكأنك قاتل قتيل؟

فرد عليه «حسن»:

- أليس من الممنوع تركك للكشك وكلامنا معا في أوقات العمل الرسمية؟

فضحك الرجل حتى سعل واحمرت عيناه وظهرت أسنانه الصفراء من التدخين وقال:

- نسيت أنك مستجد.. أتعتقد أننا حراسة حقيقية؟ أين سلاحك إذًا؟ يا بني لسنا أكثر من فزاعة مثل التي في الحقول.. منظر فقط.

نزلت كلمات الرجل كالماء البارد على رأس «حسن»، لكنها جعلته يسترخي في وقفته ويقول له:

- لقد لاحظت بالفعل الحراسات الشخصية بحللهم السوداء ونظاراتهم الشمسية وأسلحتهم المتكورة تحت ملابسهم، فما حاجتهم لنا؟

فقال له الرجل في لا مبالاة:

- منظرة.. استعراض.. كثرة الأموال التي لا يعرفون ماذا يفعلون بها.. المهم رزق لمن هو مثلي ومثلك.. لكن أنت يظهر عليك أنك ابن ناس، ما الذي جعلك تعمل في هذه الشغلانة؟

فرد عليه «حسن» بابتسامة باهتة:

- كلنا أولاد ناس يا عم «فتحي».

فقال له:

- أنت تفهم قصدي.. أنت خريج جامعة، أليس كذلك؟

فرد عليه:

- لقد أصبحت من مسوغات التعيين.. أنا عن نفسي خريج تجارة.

فمصمص الرجل شفتيه وقال:

- كان على أيامنا من يعمل في هذه المهنة من لم يستطع الحصول على أكثر من الثانوية أو ما دون ذلك.

فقال له «حسن»:

- تتغير الأيام.

- قصدك تسود الأيام.. أنا عندي ولد وبنت.. البنت قعدت في البيت بعد الثانوية وابن عمها ربنا يكرمه خطبها رأفة بحالنا.. هو ولد طيب لكن عيبه الوحيد إنه بيحشش، بالمناسبة تشرب سيجارة؟

فأشار إليه «حسن» وقال له:

- لا شكرا.. لا أدخن.

فهز الرجل رأسه وقال له:

- بكرة تتعلم.. الولد ابني ناقص أبيع نفسي شخصيا حتى أستطيع أن أجعله يكمل التعليم.. هو في السنة الثالثة كلية تجارة.. في الآخر يأتي للعمل هنا.. وربما لا يرضون به.

فابتسم «حسن» وقال له:

- ربنا يسهل وتتحسن الأيام عندما يتخرج.

فرد عليه:

- والله لا يظهر أنها ستتحسن، بل ربما ستسوء.

ونظر إلى ساعته ثم قال له:

- سوف أعود إلى مكاني؛ لأن سيادة اللواء سوف يمر الآن.

فسأله «حسن» بدهشة:

- أي لواء؟

فأشار إليه عم «فتحي» وقال له:

- سوف أقول لك بعد أن يذهب.

وبالفعل بعد أن عاد إلى مكانه بقليل مرت سيارة سوداء توقفت بين الكشكين وأنزل الرجل الزجاج وأشار إلى «حسن» من خلف نظارته السوداء فجرى إليه فقال له الرجل:

- أنت الموظف الجديد؟

- نعم يا أفندم.

قالها «حسن» بثبات وهو يرفع يده بالتحية فقال له الرجل:

- خذ بالك.

وانطلق بالسيارة وهو يحيي عم «فتحي».. بعد أن اختفى عاد «فتحي» مرة أخرى إلى «حسن» الذي كان قد عاد إلى مكانه وقال له:

- بالطبع أنت لا تعرف هذا الرجل.

فأشار بالإيجاب، فقال له:

- هذا هو رئيس الأمن.. «الكوماندة».. سيادة اللواء.. هو في الحقيقة خرج برتبة عميد، لكن الجميع هنا يقولون له سيادة اللواء، هل تعرف ما

عمله؟ ما رأيت اليوم هو عمله.. يمر كل صباح بالسيارة ويقول لكل واحد فينا: خذ بالك.. راتبه مثل راتبي عشرين مرة تقريبا؛ لأنه يمر بالسيارة ويقول جملته الشهيرة.. أنا أظنه لا يعرف غيرها، وكنت أسأل نفسي كثيرا: ألا يمل ذلك الرجل؟ لكن اتضح أنه يتحدى الملل.

ثم اتجه ليجلس على مقعد حجري وهو يقول لـ«حسن»:

- تعال يا بني نجلس هنا قليلا، الجو عندك مكتوم.

تردد «حسن»، لكن عم «فتحي» استطرد:

- لا تخف، لن يمر أحد، ولو مر ورآنا سوف يدَّعي أنه لا يرانا.. وعندما يكون هناك شيء مهم ينبهون علينا حتى نلزم أماكننا.. أحيانا أعتقد أننا نرتدي طاقية الإخفاء لا يرانا أصحاب القصور إلا في المناسبات.. تعال اجلس حتى أحكي لك.

* * *

مرت الأيام بـ«حسن» في عمله الجديد - الذي في الحقيقة لم يعمل غيره منذ تخرجه - وتعلم عن هذا العمل الكثير، سواء بالمشاهدة أو الجلوس مع عم «فتحي».. كان عليه أن يظل متيقظا طوال الوقت لما حوله دون أن يتدخل في أي شيء.

ذات مرة قامت مشادة بين شباب من القاطنين بالمدينة وكاد «حسن» يتدخل، لكن عم «فتحي» منعه وقال له:

- ليس لنا أن نتدخل في مثل هذه الأمور، ابقَ في داخل الكشك ولا تتحرك إلا إذا طلب منك اللواء ذلك، وإذا طُلبت للشهادة فأنت لم ترَ أي شيء قبل المشادة.. كل ما رأيته أشخاص لا تعرفهم يتعاركون مع بعضهم.. ربما يسبك أحدهم لكن لا يهم.

أسرته حكمة عم «فتحي» وطريقته الغريبة في معالجة الأمور.. إنه يتعامل مع الأشياء على عكس ما كان يتوقع.

كان يبدل الوردية كل شهر، وكان أن أصبحت ورديته بالليل.. أما عم «فتحي» فكان لا يأخذ وردية الليل لسنه وبيته، ولأنه يعمل منذ سنوات، فكان صاحب الشركة يسمح له بهذه المزية ولم يكن يأتي أحد مكانه؛ لذلك كان «حسن» يقضي الليل وحيدا في تلك الأيام.. تمر الساعات بطيئة؛ فجلوسه مع هذا الرجل هو ما يهون عليه ذلك العمل الممل.. لكنه استعان في أيام الورديات الليلية بالمذياع والنوم.. لكنه نوم متقطع خائف يذهب مع كل صوت خافت من حوله.

حتى في تلك الليلة التي سمع فيها صوتا من سيارة ابن «أشرف بيه» - أحد أصحاب القصور المجاورة - في البداية اعتقد أنه ربما يكون لصًا.. توترت أعصابه.. تقلصت أمعاؤه.. تحفز.. لكن ماذا يفعل؟ هل يذهب ليتفقد السيارة أم يستدعي أحد الحراس من القصر؟

ضحكة ماجنة مكتومة انطلقت من السيارة.. هل يضحك اللص بعد أن استطاع خلع جهاز تشغيل الأسطوانات؟ لا أعتقد هذا، ثم إن هذه ضحكة أنثى.. لا ليست أنثى اللص.

لم تدم حيرته كثيرا، فقد نزلت من السيارة «ماجي» ابنة «عصام باشا».. ماذا تفعل ابنة «عصام باشا» في سيارة ابن «أشرف بيه»؟!

ربما كانا يقومان بعمل تبادل تجاري..

* * *

عندما عاد للعمل في الصباح حكى لعم «فتحي» الذي ضحك وقال له:

- هل كانت هذه هي أول مرة ترى فيها هذه الأشياء؟

فرد عليه وهو يشعر بالعار:

- نعم.. لكن لا أعرف كيف سكت على هذا الانحلال.

فزاد ضحك الرجل وقال له:

- انحلال! احمد ربنا أنه لم يطلب منك أن تراقب له الطريق.

فغضب «حسن» وقال له:

- ماذا تعتقدني يا عم «فتحي»؟

فربت الرجل على كتفه وقال له:

- لا تغضب هكذا، أنا أداعبك.. سوف تتعرض لمثل هذه الأمور كثيرا، ومن الأفضل أن تتظاهر بأنك لا تشعر بشيء.. لقد كان هنا من قبل واحد صعيدي حدث معه الموقف نفسه فصمم أن يفضح الدنيا.. وكان هذا آخر يوم له بالشركة.. كُل حتى تنسى.

وقدم له طعاما تظهر عليه آثار الفخامة، فسأله:

- ما هذا؟ من أين أتيت بهذا الطعام؟

فرد عليه وهو يأكل:

- أرسله أحد خدم الدكتور «شوقي»، كانت هناك حفلة بالأمس وهذا الطعام تبقى منهم.

فقال له «حسن» باستنكار:

- نأكل ما تبقى منهم؟!

فابتسم الرجل وهز رأسه وهو يقول:

- إنهم يحترموننا لأنهم يرسلون الطعام إلينا.. هل تعرف عم «إسماعيل» عامل النظافة؟

فأشار بالإيجاب، فاستطرد عم «فتحي»:

- إنه ينتظر هذا الطعام من الحفلة للحفلة.. ومن العيد للعيد.. لكنه يأخذه من القمامة.. يجمعه ويأخذه في كيس يأكل منه هو وأولاده.

تقلصت أمعاء «حسن»، لكن عم «فتحي» لم يشعر به وأكمل:

- ذات مرة رأيته يأكل من القمامة ثم بعد قليل أخرج كل ما كان في معدته.. كان الطعام فاسدا، لكنه لم يشعر بذلك لأنه لم يكن يعلم ما يأكل.

فسأله «حسن»:

- ولماذا لا يرسل له الطباخ الطعام الفائض؟

فابتسم الرجل وهز رأسه في أسى وقال له:

- هل تريد أن يتعامل طباخ الدكتور «شوقي» مع عامل نظافة؟! الناس مقامات.. أنا لا أستطيع أن أتحدث مع أحد الخدم عنده.. ناهيك عن أنهم لا يتحدثون العربية من الأساس.. وبيني وبينك أنا أكلت عدة مرات من قمامتهم.. لا بأس بها.. أنظف وأحلى من قمامة ناس أخرى.

بالطبع أذهب كلام عم «فتحي» شهية «حسن» الذي أخرج لفافة تبغ وظل يدخنها في صمت فقال له:

- ألن تأكل يا «حسن»؟

فرد عليه وهو شارد الذهن:

- ليس بي شهية للطعام.

- يا بني.. أنت طوال النهار تشرب سجائر ولا تأكل.. صحتك يا بني.

فابتسم «حسن» في حسرة وقال له:

- أصل السجائر أصبحت أقل ثمنا من الطعام.. أو آكل من القمامة.. هذا حل آخر، ثم أنت من علمني شرب السجائر.. أدعي عليك يا عم «فتحي» وأقول إيه؟!

سيارة الجمعية

قيادة السيارات.. ذلك الكابوس المزمن الذي يطارده في نومه ويقظته.. كان «سالم» - أستاذ التاريخ - يرى أن قيادة السيارات مسئولية جسيمة ويتعجب لأمر الشباب صغار السن الذين يجلسون خلف عجلة القيادة بمنتهى البساطة.. بل لا يجدون أحيانا غصة في القيادة بيد واحدة لأن الأخرى مشغولة بالإمساك بهاتفهم الخلوي.. لكنه اليوم له زوجة وأبناء في سن الشباب.. مما يصعّب عليه التنقل بهم في زخم المواصلات التي لا ترحم.. لكن تواجهه ثلاث مشكلات.

الأولى: خوفه من القيادة الذي لازمه سنوات عمره ومنعه من تعلمها.. بالإضافة لعدم وجود الدافع الحقيقي لتعلمها.. لكنه تغلب على ذلك الخوف؛ لأن تعلم القيادة صار أمرا حتميا.

* * *

عندما دخل «سالم» إلى مكتب تعليم قيادة السيارات قابلته الفتاة التي تجلس خلف المكتب بابتسامة واسعة وقالت له:

- تحت أمرك يا أفندم.

فقال لها بتوتر شديد:

- أريد أن أتعلم قيادة السيارات.

فأشارت إليه بالجلوس وهي تقول له:

- تفضل بالجلوس.. هل سبق لك محاولة قيادة سيارة من قبل؟

فهز رأسه بالنفي.. فعادت تسأله:

- هل عندك أي خلفية عن السيارات؟

فأشار بالنفي مرة أخرى.. فأظهرت علامات الجدية وقالت له:

- إذًا فأنت في حاجة لمدرب خاص.. سوف أرشح لك الأستاذ «فوزي».

فسألها «سالم» بحرج:

- وكم سيتكلف التدريب؟

فردت بلا مبالاة:

- في العادة يمكننا تحديد عدد الحصص المطلوبة، لكنني أعتقد أنك ستحتاج أكثر من مجموعة من الحصص للتعلم.

وكان بالفعل ما اعتقدت.

* * *

عندما قابل «فوزي» لأول مرة شعر بالرهبة لنظرات الرجل الثاقبة والمتشككة على الدوام كأنه مخبر سري ليس مدرب قيادة.. أول شيء قاله له:

- القيادة مثل قرار الزواج يمكنك أن تأخذه بسهولة وأنت صغير السن.. وكلما مر بك الزمن كان القرار أصعب.

قال «سالم» لنفسه:

- هل هذه محاضرة فلسفية أم يلمح لكوني صعب التعلم؟

وكانت بالفعل محاضرة عن فلسفة القيادة وحقك وحق الآخرين، وختم محاضرته بالجملة المشهورة:

- يجب أن تعتبر أن كل الناس مجانين وأنت العاقل الوحيد.

لكن هذه الجملة أخافته وجعلت إحساسه بالمسئولية يزداد واتفقا على ميعاد الدرس الأول من دروس التدريب العملي.

بالطبع كان «سالم» مترددا بطيئا في رد فعله يحمل همّ الدروس العملية قبلها بيوم.. كأنه في كل مرة يدخل امتحانا.. كم هائل من السباب أخذه عن استحقاق وجدارة من وجهة نظر السائقين جواره.. كان في البداية يشعر بالحرج لكنه اعتاد الأمر.. استغرق الأمر ضعف عدد الحصص المعتاد للتدريب العملي، لكنه في النهاية انتهى من هذه المشكلة.. قيادته ليست جيدة لكن على الأقل يمكنه السير على يمين الطريق في حاله.

المشكلة الثانية: رخصة القيادة.. كانت الفتاة في المكتب قد عرضت عليه أن يستخرج المكتب الرخصة له نظير مبلغ من المال فأخبرها أنه عندما ينوي استخراجها سوف يأتي إليها.. لكنه في الحقيقة لم يرد استخراجها بهذه الطريقة.

ذهب «سالم» إلى المرور وسحب الاستمارات المطلوبة.. وقف في الصف الطويل على أي شباك حتى حانت لحظة الاختبار الحقيقية.

مجموعة من الأقماع يسير من بينها ويدور حولها ثم يرجع إلى الخلف ويقوم بعمل...

لقد أوقع أول قمع.. كانت السيارة المستخدمة في الاختبار مغايرة للسيارة التي تعلم عليها فشعر وكأنه أول مرة يقود سيارة.. أخبره الممتحن أن يأتي بعد شهر، لكنه بعد شهر ذهب إلى المكتب الذي استخرجها له وهو واقف في الظل دون اختبار.

* * *

المشكلة الأخيرة هي الأهم؛ لأنها السيارة نفسها.. لكنه تحايل عليها بمبلغ من المال كان قد ادخره خصيصا لها من عمله الطويل بالجامعة، زاد عليه بالجمعية التي كان قد اشترك فيها.. عندما عرض المبلغ على خبراء السيارات أخبروه أنه مناسب لشراء سيارة 128 صناعة الثمانينات.. فدار

بما معه من مال طويلا حتى اشترى واحدة حمراء بحالة جيدة.. كان دائما يعتقد أنه اللون الوحيد لهذا النوع.

كان فرحا بها على الرغم من تواضع حالتها وصعوبة قيادتها.. لكنه يقول لنفسه:

- المهم أنها تسير.

كان كعادته في أثناء التدريب يُشتم كثيرا.. الصفة التي ألصقت به.. خمار.. كان يحاول أن يأخذها بصدر رحب وينسى.. لكن ما علق في ذهنه حادث المرسيدس.. لم يقدر المسافة التقدير السليم وأصابه وقوفه وجها لوجه أمام المرسيدس بالذهول فكان من سيارته القديمة أن لمست تلك النفيسة فنزل صاحبها ضخم الجثة في غضب ونزل وهو يرتعش ويقول:

- أنا آسف يا سيدي، لكني تحت أمرك في أي إصلاحات.

فنظر له الرجل من رأسه إلى قدميه ثم قال له وهو ينظر إلى سيارته الحمراء:

- هو كل موظف مش لاقي ياكل عمل جمعية واشترى حتة حديدة افتكر نفسه راكب عربية ولا إيه؟ ما دام ما بتعرفش تسوق بتسوق ليه؟ يلّا يا عم اتكل على الله.

وتركه في عرض الطريق وسط ذهوله ونظرات المارة التي كانت مزيجا من الشفقة والسخرية.. هل توجهت إليه حقا كل تلك الإهانات؟ أستاذ التاريخ.. لكن أي تاريخ؟

حتى لو أخطأت لم يكن من المفترض أن يتحدث إليّ بهذه الطريقة.

لن أقود هذه السيارة مرة أخرى.. لكني اشتريتها فماذا أفعل بها؟

حسنا يجب أن أكون أكثر حذرا.. كان عندي حق عندما كنت أخشى القيادة.. ذلك السافل..

لكننا إذا قمنا بتجريد الموضوع سنجد أنه لم يخطئ، فأنا في حقيقة الأمر موظف وبالكاد يمر عليّ الشهر مستور لكنه كيف عرف بأمر الجمعية؟ هل هو يعرفني دون أن أعرفه أم كان يراقبني؟ يراقبني! نعم إنه من أمن الدولة وقد وقع بلسانه.. لقد تحدثت عن المماليك في المحاضرة السابقة وقلت إن مصر هي الدولة التي اشترت العبيد فحكموها، ربما اعتقدوا أني أقصد شيئا ما.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. سوف أجن بسبب الإهانات التي نزلت على رأسي.

وحاول أن ينسى، لكن الإهانات ظلت توجعه لأسابيع ويشغله السؤال السرمدي: كيف عرف بأمر الجمعية؟!

آخر الخط

خرج «سمير» من عيادة الطبيب المعروفة بوسط البلد مطأطأ الرأس.. كان ثالث طبيب يذهب إليه لأنه كان يريد أن يتأكد.. أو لعله كان يريد ألا يتأكد.. لعله يقول له شيئا مختلفا، وفي كل مرة يقوم بعمل التحاليل والأشعة في مكان مختلف.. والنتيجة نفسها في كل مرة.

توجه إلى ميدان التحرير ليركب الحافلة المتوجهة إلى «السيدة عائشة»، فجلس على الدكة في موقف الحافلات منهك القوى.. لم يكن يتعب من السير حتى علم بمرضه.. صار خائر القوى.. هل هو الوهم ما يجعله يشعر بالتعب؟ قبل أن يعرف بمرضه لم يكن يشعر بشيء من هذا.

نظر حوله يتأمل الناس.. هل هناك أحدهم يشتكي من مرضه ويعلم.. أو لا يعلم؟ أقرانه من حاملي ذلك المرض يظلون بالمشفى حتى الموت.. لم ير أحدا أصابه ذلك المرض وعاد إلى حياته الطبيعية مرة أخرى.. حتى من ظل منهم على قيد الحياة ولم يصرعه المرض ظل صديق العلاج الكيماوي الذي يقتل ببطء شديد بلا رحمة.

جاءت الحافلة، وعلى الرغم من أن الوقت متأخر فإن الميدان لم يكن هادئا.. كعادته فهو لا ينام ولا يهدأ.. صعد إليها وجلس بجانب النافذة يتأمل المارة.. بائع الشاي يتحرك هنا وهناك يوزعه في أكواب من الورق المقوّى.. بائع الجرائد على باب الموقف.. يقف المارة عنده يتأملون صحف الغد لعلهم يجدون بها ما يحملهم على التفاؤل بالغد.. أما هو فلا يملك أن يكون عنده أمل في الغد.. سوف يأتي الغد وهو في جوف الأرض.. هذا إن كان سعيد الحظ، أما إذا كان غير ذلك فسوف يتعذب قليلا.. أو كثيرا.. قبل أن يذهب إلى باطنها.

تحركت الحافلة بعد أن أخذ كل راكب التذكرة من المحصل الذي مر عليهم قبل أن يجلس بجانب بابها الخلفي.. فمر الهواء بوجه «سمير» فطارت من عينه دمعة كانت متشبثة بأهدابه فمسح عينه وحاول أن يتماسك حتى لا يثير فضول جيرانه من الركاب.

سوف يترك «هشام» - ابنه الوحيد - ليكون وحيدا في هذه الدنيا بلا أب.. لا يزال صغيرا وسوف ينظر إليه الناس في شفقة ويمصمصون شفاههم ويقولون:

- تيتّم صغيرا.

ثم يحمدون الله أن أبناءهم ليسوا في مكانه.. حتى بعد موته سوف تحمّله «ليلى» - زوجته - سبب لقب اليتيم الذي سيلتصق بولده.. إنها

تحمّله مسئولية كل شيء: غلاء الأسعار وانخفاض راتبه، مع أنها هي المسرفة، لا تستطيع الاقتصاد.. عيد ميلاد فلانة.. هدية.. فرح فلانة أخرى.. فستان جديد لها وهدية للعروسة.. يجب الذهاب للمصيف فالقاهرة لا تطاق.. ماذا لو عرفت بمرضه؟

حمد الله أنه لا يشرب التبغ وإلا حمّلته سبب مرضه، وعلى العموم فعندما ستعرف سوف تحمّله المسئولية على أي حال.

كلما تذكر «ليلى» قبل الزواج تعجب لحالها.. لم تكن بهذه الأنانية وحب الذات.. كانت تُظهر له من التفاني والزهد في متاع الحياة الدنيا ما جعله مقبلا على الزواج منها غير مدبر أو قلق.. تغيرت كما يتغير كل شيء.. لا يتذكر متى تغيرت، لكنها تغيرت بالتدريج، فلم يشعر إلا وهي على هذا الحال.

سوف تتزوج بعد أن يموت؛ فهي لا تزال صغيرة وهو لن يستطيع الاستمرار، فالوقت الذي أمامه قصير وبعده يكون لـ«هشام» زوج أم، فمن يا ترى سيكون زوج أم ابنه؟

«أشرف» ابن خالتها، مهندس ميسور، كان يريد الزواج منها، فهو يحبها، لكن أيامها كان لا يزال طالبا بالكلية وهي كانت طالبة بكلية الآداب ولم تكن من هواة الانتظار.. سوف يأتي لزيارتها فتدخل عليه بفستان أسود - وهي بالمناسبة فاتنة في اللون الأسود - هذا ربما سيكون

أكثر ما سيشغلها فيقوم ليسلم عليها وينظر إليها نظراته الحانية.. سوف يقع سريعا في حبائلها، لكن والدته لن ترضى، سوف تقول له:

- ناخد فاضلة الناس؟

لكنه مُصر حتى لا يظهر أمامها بمظهر الطفل المدلل ابن أمه.

سوف يخرج عبقري باقتراح آخر هو أن تتزوج من أخيه «حسن».. «حسن» أصغر من «سمير»، لكنه لحسن الحظ أكبر من «ليلى»، والمهم أن حالته المادية أفضل بكثير من «سمير»؛ لذلك لن تعترض «ليلى» عليه، وهكذا يتربى «هشام» بين والدته وعمه وتراه جدته من جديد ليعوضها عن فقدها ولدها ويكثر أولاد «حسن» من «ليلى» ويتوه «هشام» وسطهم ويُنسى «سمير».

لا يهم، حتى لو قالوا في داخلهم: «كلب وراح».. المهم عنده مصير ابنه.. هل «أشرف» سيكون أبا بديلا جيدا، أم الأفضل أخوه «حسن»؟ وماذا لو تزوجت ومات زوجها الجديد؟

ابتسم لهذه الخاطرة وقال لنفسه: سوف يقولون عنها إنها نحس نذير شؤم.

تذكر أبو القاسم الشابي عندما قال:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

يا لها من ثقة ليس لها أساس وقد مات.. وهو سيموت بالداء أو بالأعداء.

فاتته المحطة التي كان سينزل فيها؛ لأنه كان يجلس مغمض العينين مطأطأ الرأس لا يدري بشيء مما يدور حوله حتى وصلت الحافلة إلى نهاية الخط فانتبه له المحصل فقال بصوت عالٍ:

- آخر الخط يا أستاذ.

فلم يرد عليه، فهز المحصل رأسه في أسى وذهب ليوقظه فهزه وهو يقول له:

- اصح يا عم.. آخر الخط.

فلم يتحرك «سمير»، فعاد الرجل ليهزه بقوة أكبر ليسقط «سمير» على المقعد بلا حراك ويصرخ الرجل بطريقة هيستيرية ويأتي السائق ويصعد بعض المارة الفضوليين وينظر إليه الجميع ويضربون كفا بكف ويهزون رءوسهم.

- مات الرجل.. حد يشوف بطاقته ونتصل بالشرطة والإسعاف.

- أنا كنت رايح أقول له آخر الخط.

وقد كان بالفعل آخر الخط.

حياة مزدوجة

استيقظ «عادل» على مداعبة زوجته «سميرة» الرقيقة له.. لكنه كعادته قام بجفاء واتجه مباشرة إلى الحمام دون حتى النظر إليها أو إلى طفليه اللذين كانا قد استعدا للذهاب إلى المدرسة وأرادا أن يسلما عليه قبل النزول.. لكنهما عندما شاهداه على ذلك الحال آثرا النزول دون الحديث معه.

خرج «عادل» من الحمام وهو يجفف وجهه بمنشفته، وعندما أزاحها من على وجهه رأى «سميرة» أمامه فقال لها في اقتضاب:

- صباح الخير.

فردت عليه وهي تبتسم:

- صباح النور يا حبيبي.

لكنه كان قد تركها وذهب إلى غرفة النوم ليغير ملابسه وينزل إلى العمل فذهبت وراءه وقالت له:

- ألن تأكل شيئا قبل نزولك؟

فرد عليها بجفاء:

- لا.. لقد تأخرت.

- كل أي شيء.

- لا أريد.

وتركها بالغرفة واتجه إلى الصالة ليرتدي الحذاء فذهبت خلفه وقالت له:

- سوف يذهب اليوم الأولاد إلى أمي بعد المدرسة وربما يقضون اليوم هناك.

فهز رأسه دون أن يرد عليها فعادت لتقول له:

- ماذا تريد أن تأكل على الغداء؟

فقال بلا مبالاة:

- أي شيء، على العموم سوف أتأخر اليوم في العمل وربما آكل هناك.

فابتسمت وقالت له:

- سوف أطبخ اليوم بامية.. أعرف أنك تحبها.

فقام وقال لها وهو يتجه إلى الباب:

- حسنا.. سلام.

أغلق الباب خلفه.. كان يريد التخلص منها لينزل إلى الشارع بسرعة ليتحدث في هاتفه الخلوي، وبمجرد ركوبه السيارة وتحركه بها أخرج هاتفه وطلب الرقم وانتظر في قلق وهو يسمع الرنين..

- نعم.. ماذا تريد؟

كان صوتا ناعما يأتيه من الطرف الآخر فقال لمحدثته:

- صباح الفل يا جميل.. أريد أن أصبّح على الجميل.

فردت عليه بغضب مصطنع:

- هل ما زلت تتذكرني؟

فقال لها بحنان:

- وكيف أنسى أهم شيء في حياتي؟ ربما أنسى نفسي ولا أنساك.

فضحكت وقالت له:

- لماذا لم ترد عليّ بالأمس.

فقال لها:

- كان عندي ضيوف ولم يذهبوا إلا بعد وقت متأخر.

فقالت له:

- كان يمكنك التحدث ولو للحظات لأطمئن عليك.. لو تعرف كم أقلق عليك لما فعلت بي هذا.

فضحك وقال لها:

- بل أعلم يا حبيبة قلبي.. لقد افتقدتك الأيام الماضية.

فقالت له بدلال:

- بدليل أنك لم تأت لزيارتي منذ أيام ولم ترد عليّ بالأمس.

فقال لها:

- سوف أمر عليك اليوم بعد العمل.

فقالت له في فرح:

- حسنا سوف أطبخ لك بامية على الغداء.. أعرف أنك تحبها.

* * *

ظل طوال اليوم يفكر فيما يفعله.. لقد تغيرت زوجته كثيرا.. صارت أرق.. أكثر تفهما.. قليلة المطالب.. أكثر صبرا.. على الرغم من ذلك هو مُصر على المضي في علاقته مع هذه المرأة.. في البداية كان يجد فيها ما فقدته زوجته من جرّاء الزمن وتربية الأولاد والانغماس في حياة المنزل وإهمالها له، لكنها اليوم عادت للاهتمام به، وهذا ما بدأ يُشعره بالذنب تجاه زوجته.

لم يكن عنده ضيوف بالأمس، بل كان يفكر في علاقته بتلك السيدة.. لقد بدأ يفكر في قطع تلك العلاقة المحرمة، لكنه يخشى عليها من الصدمة.. إضافة إلى ذلك فهو لا يزال يميل إليها.

انتهى العمل، ففكر في العودة إلى البيت والاعتذار إليها.. لكنه عاد ليعزم أمره على الذهاب.. كان من عادته أن يشتري لها أي شيء وهو ذاهب إليها، أما اليوم فسيذهب خالي الوفاض.. أوقف سيارته في الشارع

الهادئ وتلفت حوله قبل أن ينزل منها واتجه نحو البناية وانتظر المصعد الذي وصل ليخرج منه رجل يهرول بسرعة ويقول له في أثناء سيره:

- كيف حالك يا أستاذ «عادل»؟ لا مؤاخذة مستعجل.

واختفى الرجل.. لكنه أشعل التساؤلات في نفسه.. هذا الرجل يعرفه من أين؟ وصل المصعد إلى غايته فخرج منه واتجه إلى شقتها وضرب الجرس ليسمع خطواتها من الداخل، وعندما فتحت الباب أشرقت عليه وهي ترتدي روبا خفيفا من فوق قميص شفاف وقالت له:

- ادخل بسرعة.

فدخل وأغلقت الباب خلفه لتحتضنه وهي تقول له:

- لقد أوحشتني بشدة.

كان لأول مرة يشعر أنه يخون زوجته، فقال لها ببرود لم تعهده:

- أنت أيضا.

فلاحظت هي ذلك فقالت له:

- ما لك؟ هل أنت متعب؟

فرد عليها:

- نعم.. قليلا من العمل.

فساعدته في تغيير ملابسه في غرفة النوم وقالت له:

- ما إن تنتهي من غسل وجهك حتى أكون قد وضعت لك الطعام.

فدخل الحمام وظل يتأمل وجهه في مرآة الحمام ويقول لنفسه: ما الذي دفع بك إلى هذه العلاقة؟

- هيا يا «عادل».. الطعام.

فجلس على المائدة وبدأ في الأكل.. الطعام لذيذ لكنه بدأ يفتقد الأكل مع زوجته وأولاده.. بدأ يفتقد مشاكل الأسرة.. اتضح له أن المشاكل يمكن أن يكون لها طعم خاص.

ظل يتحدث معها عن يومه بالعمل واسترسلا في حديثهما حتى مر وقت طويل لم يشعرا به.. وفي أثناء الحديث أحس كأن هناك شيئا واقفا في بلعومه وأحس بصعوبة في التنفس فقال لها بصوت متحشرج:

- ماء بسرعة يا «سميرة».

فناولته كوبا من الماء كان على المائدة ووقفت بجانب كرسيه وهي تضع يدها على كتفه فقبّل يدها وقال لها:

- اجلسي يا حبيبتي.

استكملا حديثهما في مكانهما بعد انتهاء الغداء ثم قام إلى الحمام ليغسل يديه، وفي أثناء ذلك سمع جرس الباب لتفتح السيدة ويسمع جلبة بالخارج.. وعندما فتح الباب رأى طفليه ينتظرانه على الباب فابتسم لهما وقال:

- عاملين إيه يا حبايبي؟

فابتسم الطفلان وتعلقا به، وفي الخارج كانت «سميرة» تبتسم في فرح لم تشعر به منذ سنوات.

* * *

انتظرت «سميرة» طويلا في عيادة الطبيب النفسي المشهور حتى دخلت إليه لتحكي له عن آخر زيارة لزوجها لها فهز رأسه في رضا وقال لها:

- لقد تعرف هذه المرة على الأولاد فور رؤيتهم.. هذه علامة جيدة.. لم يحدث بينكما اتصال جنسي في المرتين الأخيرتين.. هذه أيضًا علامة طيبة.

ثم دوّن بعض الملاحظات وقال لها:

- سوف ننتقل الآن إلى المرحلة الثانية، خاصة أنه تعرف عليك في أثناء الغداء، وهي مرحلة المشاكل البسيطة مع معشوقته، وعلى أثرها سوف تنتهي تلك العلاقة التي من المفترض أن تشبع رغبة كانت في داخله وانتهت أو أشبعت الآن.

فقالت له:

- أرجو أن ينتهي هذا الأمر سريعا، فقد بدأت أشعر أني بالفعل معشوقته.

فرد عليها الطبيب:

- وهذا مطلوب أن يظل كذلك حتى بعد العلاج، ولن أقول لك يجب على الزوجة أن تكون صاحبة زوجها ومعشوقته وعسكري المرور وعم «سيد» الذي لا أعرفه؛ فأنت لست «سوبرمان».. أعرف ذلك، لكن على الأقل يجب أن تهتمي به وبنفسك لأقصى ما يمكنك.. يجب أن تكون هناك مساحة من الاهتمامات الشخصية المشتركة بعيدا عن الأولاد والبيت والمسئولية.. أتفهمينني؟

كانت تفهمه، والأهم أنها كانت مصرة على الحفاظ على زوجها الذي علمت أنها بالفعل تحبه لأقصى حد، وقد تفعل من أجله أي شيء.

التسول..

على أبواب الجامعات الخاصة

عندما دخل «حسام» غرفة الدروس العملية اعتقد أن الطلبة في تلك الجامعة الخاصة - التي تنتمي لإحدى الجنسيات الأجنبية - سوف يعيرونه اهتمامهم كما يفعلون عنده في الجامعة الحكومية التي يعمل بها.

تم تعيين «حسام» لأنه كان الطالب الفذ الذي كان ترتيبه الأول على دفعته واعتقد أن ذلك كان أول الطريق في إصلاح التعليم الجامعي على يديه، وما لبث كثيرا حتى عاد سالما إلى أرض الواقع بعدما عرف انخفاض سقف الأحلام في جامعاتنا ومجتمعنا على العموم.. بعد أول مرتب يتسلمه.. بعد أن تمت إهانته في المواصلات أو في أحد الأقسام.. بعد أول ارتفاع للأسعار.. بعد أن أراد أن يتزوج ولم يكن عنده القدرة المادية.. لم يعد أمامه حل غير أن يقوم بإعطاء دروس للطلبة وهذا ما كان يرفضه.. أو يعمل في جامعة خاصة يوما أو يومين.. وهذا ما كان ممنوعا عليه

كمعيد، لكن ساعده في الحل الثاني دكتور يعرفه يعمل في تلك الجامعة.. لذلك استطاع القبول بها.

كانت أول مرة له في تلك الجامعة.. سمع عن نوعية الطلبة المختلفة عن طلبة الجامعات الحكومية البائسين الباسلين أبناء العوام.. أما هؤلاء فأبناء النخبة وأصحاب النفوذ أو السلطان أو الأموال أو جميعها في معظم الأحوال.

دخل غرفة الدروس العملية.. وقف أمام لوح الكتابة الأبيض الأنيق.. وضع أوراقه على المكتب الذي أمامه.. كانت كل هذه الأفعال إشارات منه إلى أنه سوف يقوم بتدريس شيء ما لعلهم يصمتون.. لكن بلا جدوى.

كان أحد الطلبة يتحدث في حماسة مع جاره عن مباراة الأمس بإحدى البطولات الأوروبية.. آخر يغط في نوم عميق.. ثالث يتحدث في هاتفه الخلوي.. أما في نهاية الفصل فهناك طالب يشاهد مع زميلته فيديو على هاتفه الذي لم يرَ «حسام» مثله من قبل في محيط ما يقابله ويراه من هواتف على اختلافها وتنوعها.

مر الوقت و«حسام» لا يعرف ماذا يفعل وكيف يلفت انتباههم فقال:

- السلام عليكم.. أنا معيد الديناميكا.

فرد عليه طالب يجلس في المقدمة:

- إحنا عارفين يا باشمهندس.. معانا الجدول.

كان الطالب يتحدث بتلقائية وطريقة جعلته لا يعرف هل يسخر منه أم هو بالفعل يقصد ما قال.. المهم أن الصوت انخفض قليلا وإن لم يكف من يلعب بهاتفه عن اللعب أو من يلعب مع - أو في - زميلته عن اللعب أيضا.. على أي حال بدأ في الشرح وحل بعض المسائل وقد لاحظ أن هناك طالبا يضع قدمه على الكرسي الذي أمامه بطريقة تجعله يستطيع معرفة قياس حذاء الطالب.. فكر في أن يلفت نظره لكنه أحجم.. لا يعرف لماذا أحجم.

خرج «حسام» من الفصل قبل انتهاء الوقت بربع ساعة وهرول إلى الغرفة المخصصة للمعيدين.. كان يشعر بالضيق والحرج من نفسه.. لا يمكن أن يسمح بحدوث مثل ما حدث اليوم في فصله بالجامعة الحكومية التي يعمل بها.. فما الذي جعله يسكت اليوم؟ هو يعلم، لكنه لا يريد أن يعترف أمام نفسه.. أحس زميل له بهمه فقال له:

- ما لك يا «حسام»؟ مهموم ليه؟ ده انت لسه في أول يوم، ولا أقول لك ده إحنا لسه في أول يوم.

كان يريد أن يفرج عنه همه، لكن «حسام» لم يبتسم وحكى له ما حدث له في أول يوم فضحك زميله وقال له:

- يا ابني ده انت ياما هتشوف، ولازم تطنش، وإلا مش هتعمر.. انت لو جيت هنا يومين في الأسبوع هتاخد زي ما بتاخد في جامعتك مرتين.. كبّر دماغك وكل عيش.

فظهر على «حسام» عدم الاقتناع فاستطرد زميله:

- أنت متزوج ولا لسه؟

فرد عليه في أسى وهمّ واضحين:

- خاطب بس لسه ما اتجوزتش.

فقال له:

- طبعا بسبب الشقة والعفش والذي منه.. طيب هتتجوز منين؟

فلم يرد عليه «حسام»، فقال له:

- وبعدين انت شفت حاجة؟ والله يا ابني، وما ليك عليّ حلفان، مرة وأنا راكب أتوبيس الجامعة مروح كان الأتوبيس هادي وكنت قاعد في آخر كرسي عشان بحب أنام.. أصحى لك على صوت مش ولا بد من الكرسي اللي قدامي وألمح البت اللي قدامي بتطلع إيديها من بنطلون زميلها اللي جنبها.

فاتسعت عينا «حسام» في رعب وقال له:

- وماذا فعلت؟

فرد عليه:

- عملت نفسي ما شفتش حاجة وكملت نوم.

لن يصل الأمر بي إلى هذا الحد.. لن أترك نفسي حتى يصل بي الأمر إلى هذا الحد.

* * *

- ألو.. أيوه يا عمي.. أيوه الكلام ده مظبوط.. لا المشكلة عندي أنا.. الظاهر إني اندفعت في الارتباط وأنا مش جاهز.. يعني بالمعدل ده ولا خمسين سنة كمان.. أنا ما حبتش أظلم بنات الناس معايا.

* * *

الطائرة المسافرة إلى المملكة العربية السعودية.. دكتور «حسام» على متنها.. لم يتزوج حتى الآن، لكن يتملكه الأمل في أن يستطيع تكوين نفسه بسنوات الإعارة التي سوف يقضيها هناك.

جمعية الأحلام

أركب مواصلتين للذهاب إلى عملي أو العودة منه؛ لأنني أسكن على أطراف القاهرة.. من حسن حظي أني أركب من موقف «الميكروباص».. أنا أحسد نفسي عندما أجد المارة في الطريق يشيرون إلى السائق لعلهم يجدون مكانا شاغرا بنزول أحد الركاب في الطريق.

في ذلك اليوم كان الجو هادئا.. وقد عدت متأخرا من عملي.. وقفت بجانب السيارة وبدأت أفاضل بين الأماكن الخالية.. كانت المقاعد خلف السائق خالية، لكن من يجلس هنا سوف يقوم بجمع الأجرة، وهذا ما لا أحبه.. بل أخشاه ولا أتمناه.. لمحت المقعد بجانب السائق خاليا، وهذا المقعد يُنسى لسبب لا أعرفه.. أو ربما يخشاه البعض لشذوذ أفعال بعض السائقين.. سألت الرجل الجالس في المقعد الأمامي بجانب النافذة:

- فيه حد جنبك؟

فلم يرد أو حتى يلتفت إليّ.. ظننت أنه مات منذ فترة وفي طريقه للتعفن.. لكنه فجأة نزل بلا كلمة وأشار لأصعد فأجلس بينه وبين

السائق.. كنت أرى السيارة من ورائي في المرآة.. ما زلنا في حاجة لثلاثة ركاب.

- يلا يا أسطى وتجيب التلاتة دول من السكة.

كان هذا الاقتراح الشجاع من أحد الركاب الذي أظنه أول مرة يركب من هذا الموقف.. شجاع لأن منظر السائق لا يشجع بالمرة على الحديث معه أصلا.. وظني أن تلك أول مرة يركب فيها من هنا؛ لأن هذا الاقتراح كلما قيل لأي سائق كان رده يفتقر للتهذيب على أقل تقدير.. لكن العجيب أن السائق ظل منشغلا في شرب لفافة تبغ ولم يعر لصاحب الاقتراح أي اهتمام.

صعد رجل عجوز وجلس خلف السائق وأسند رأسه على الزجاج وأغمض عينيه، أظنه نام، لكن من لم يرَه وهو صاعد يخاله قد فارق الحياة أيضًا مثل جاري الذي أوشك على التعفن.. ما زلنا في انتظار اثنين.

- يا مسهل يا رب.

قالها السائق عندما لمح رجلا وامرأة يجدّان في السير معهما بعض الحقائب البلاستيكية يتجهان نحو السيارة، وعندما تأكدا من وجهتنا صعدا ورصّا ما معهما أمامهما.

- اقفلوا الباب عشان نطلع.

وعندما دارت السيارة انتبه الرجل العجوز فأعطى الأجرة للرجل الذي جلس بجواره ويبدو أنه زوج السيدة التي معه لينام من جديد بلا قلق.

- اتفضل العربية يا أسطى.

كان الرجل قد جمع الأجرة للسائق وأعطاها له فرد عليه السائق:

- تُشكر يا نجم.

وعندما تأكد من الأجرة قام بتشغيل شريط غريب لكائن عجيب من المفترض أنه يقوم بالغناء.. كانت ما يفترض أنها أغنية عبارة عن حكاية خيانة للسيدة الفاضلة التي يمشي معها المطرب، يبدو أنها تركته ومشت مع رجل آخر.. قلت في نفسي: «إن أنكر الأصوات».

- مين اللي جاب الشريط المقرف ده؟

قالها السائق ونظر إليّ في دهشة واتهام فقلت له بسرعة حتى أعيده إلى وعيه:

- إيه يا أسطى مش دي عربيتك؟!

فضحك السائق لأنه ظن أني أداعبه وقال:

- الظاهر الواد «لومه».. بص بقى هاسمعك شريط إيه هيخليك تطير على الطريق.

وعندما وضع الشريط الآخر عرفت مدى الموهبة التي كان يتمتع بها الكائن الأول.. كنت أريد أن أقول له أن يطفئ الشريط، لكني لم أستطع أن أقطع عليه هذا الشعور بالنشوة العارمة.. كان يميل بالسيارة مع نغمات النشاز الخارجة من السماعات.. كنت أريد فعلا أن أطير من السيارة ولم أدرِ ماذا أفعل.. وفجأة سكت الصوت فترك السائق عجلة القيادة لينظر إلى سبب العطل فصرخت فيه:

- الطريق يا أسطى.. خلي بالك.

كنت أخشى أن يصطدم بشيء أو أن يعيد تشغيل الشريط.. عاد إلى القيادة عابس الوجه ينظر إلى الطريق بعين خاوية.. كان الهدوء سيسود لولا الرجل ومن أظن أنها زوجته خلفي، كانا يتحدثان بصوت عالٍ وكأن التسجيل لا يزال يعمل.. كانا منهمكين في الحديث ولم أقصد التنصت عليهما، لكن علو صوتهما جعلني أسمع الحديث بلا مشقة أو عن عمد.. كانا يتحدثان عن الجمعية التي قاما بتحصيلها هذا الشهر.. كانت تقول له:

- عايزين ندي للشقة وش بوية أحسن شكلها بقى ما يسرش وانت عارف بقى.

فرد عليها بلا مبالاة:

- لأ مش عارف.. انتي عارفة الوش ده يكلف كام؟

فقالت له:

- لأ ما هو إحنا نجيب البوية وأخويا جاي من البلد وإحنا نساعده، وأدينا نوفر المصنعية وانت عارف بقى.

كنت أريد أن أسألها هل عندها مرض معين يجعلها تقول «وانت عارف بقى» في نهاية الكلام وقد قال لها إنه لا يعرف.. بعد هدوء وصمت داما لثوانٍ معدودة قالت له:

- الحمد لله الجمعية دي جت في معادها، فرح «نجلاء» الأسبوع الجاي ولازم ننقطها وانت عارف بقى.

فرد عليها:

- اللي أنا عارفه إن إحنا أولى بالفلوس من «نجلاء» بنت «عبده» الجلدة.. يعني همّ كانوا جاملوكي في أي مناسبة.

فقالت له بطيبة وهي تربت على كتفه:

- خليك انت الكبير ربنا يكرمك، وبعدين أنا مش قلت لك على المنام اللي شوفته امبارح.. ده انت ربنا هيرزقك من وسع، وبعدين اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.

- ولا تبسطها كل البسط.

فعادت لتقول له:

- ربنا هيعوض عليك إن شاء الله، وانت عارف بقى.

فسألها باهتمام:

- قسط المصاريف بتاع مدرسة العيال إمتى؟

فردت عليه:

- الشهر الجاي.

فقال لها:

- طيب عايزين نعمل حسابنا أحسن دول ما يعرفوش ربنا.

فقالت له لتهدئه:

- ربنا يستر إن شاء الله.

فسكت قليلا ثم قال:

- يعني كان لازم مُدرسة خاصة؟ وما تقوليش ما انت زفت بقى اللي بتقعدي تقوليها.. لأ مش عارف، أنا اللي عارفه إن كان مالها المدارس الحكومة؟ وكده ولا كده بياخدوا دروس.

فقالت له:

- هانت، وإن شاء الله لما يدخلوا ثانوي يبقوا يدخلوا حكومة علشان يقعدوا يذاكروا في البيت وما يروحوش المدرسة أصلا واهم بياخدوا دروس.

فسكت قليلا ولم تتركنا هي لننعم بالهدوء فقالت له:

- صحيح عايزين نصلح البوتاجاز.. أحسن بيهبب الحلل.

فقال لها بسخرية:

- ما العيشة كلها هباب، هي جت على الحلل؟

فابتسمت وقالت له:

- وبالمرة بقى السباكة الضاربة في الحمام.

فقال لها:

- ربنا يسهل، لما نشوف الفلوس هتكفي ولا لأ.

فعادت لتقول:

- ما تخافش، إن شاء الله هتكفي وبعدين إحنا نجيب الحاجة وأخويا لما ييجي من البلد يعمل كل حاجة.

فقال لها:

- أهو بدل ما يقعد من غير شغلة ولا مشغلة.

فقالت له:

- ربنا هيكرمك.. ده أمي فسرت لك المنام وانت عارف بقى.

- على جنب يا أسطى.

قالها الرجل فحمدت الله أني سأنعم بالهدوء، فوقف السائق على جانب الطريق ونزل الرجل وزوجته، وما إن تحرك السائق مرة أخرى حتى أوقفه شاب ليركب.. وعندما هم السائق بالتحرك سمع صوتا يصرخ عليه بالتوقف.

- معلش يا أسطى أحسن، الفلوس وقعت مني.

كان الرجل يلهث ونزل الشاب الذي ركب للتو وأيقظنا العجوز النائم ثم بدأنا في قلب السيارة بلا جدوى فقال له السائق:

- انت متأكد إنها كانت معك وانت راكب؟

فرد الرجل بحسرة:

- أيوه، دول ألفين جنيه، نص فلوس الجمعية لسه واخدها وأمنت عليهم بعد ما ركبت.

فأعدنا البحث مرات ومرات بلا نتيجة فطأطأ رأسه في أسى وقال لزوجته وهو ينصرف:

- آدي يا ستي تفسير حلمك، تعالي ندوّر مطرح ما نزلنا.

فقالت له:

- الحمد لله إنها نص الجمعية، بالك لو كانت الجمعية كلها.. انت عارف بقى.

ومشيا في طريقهما وعادت السيارة للتحرك، فقال لي السائق بعد قليل:

- أهو لو كان قاعد جنبي كان قال أنا اللي أخدتهم.

فقال أحد الركاب:

- بس كان لازم ياخد باله.

فرد عليه آخر بأن هذا قضاء وقدر، ثم بدأ الجميع يدخل في نقاش ساخن حول الحذر والقدر والإهمال.. قطعت ذلك الحوار ضحكة من السائق وهو يقول:

- همّ كانوا هيعملوا كل ده بألفين جنيه؟ همّ إيه عايشين أيام الجنيه الجبس؟

كانت دعابته قاسية.. لم تضحكني، بل رأيته عديم المشاعر فقلت له:

- ربنا يعوض عليه يا أسطى.

- وعلينا يا رب.. شفت الزمالك إمبارح عمل إيه؟

- الجون كان أوفسيط.

قالها رجل القضاء والقدر وبدأ حوار أسخن بين الركاب لم يهدأ حتى نزلت.

الدمية

إهداء إلى بطلة «عروستي خلج»

كانت العجوز تحيك قطعة قماش على شكل إنسان، وبجانبها حفيدتها الصغيرة.. على الرغم من يدها السمراء المرتعشة.. خصلات شعرها الأبيض اللامع المطلة من تحت العصبة السوداء على رأسها.. تجاعيد يديها والأخاديد التي حفرها الزمان في وجهها.. كانت العجوز تعمل بدقة وحرفية؛ لأنها قضت عمرها في صنع الدمى القماش.. قالت لحفيدتها:

- لقد كنا نصنع هذه الدمى ونبيعها للسائحين، لكن كفانا الله الآن، فما عدنا في حاجة إلى هذا العمل.

فردت عليها الطفلة:

- لكني يا جدتي لن أبيع الدمية التي تصنعينها لي مهما حدث.

فابتسمت العجوز ونظرت إليها في حنان.. كانت قد انتهت من صنع الجسد وخياطة أطرافه فبدأت في وضع ملامحه بالخرز والألوان.

- ناوليني قطعة القماش تلك يا «سلمى».

قالتها العجوز للطفلة فقامت وأتت لها بقطعة قماش زاهية الألوان مؤطرة الأطراف بشريط ذهبي فتناولتها العجوز وبدأت في عمل فستان للدمية.

- ماذا سيكون اسم دميتك؟

قالتها العجوز وهي تحيك أطراف الفستان فردت عليها الطفلة:

- سوف أسميها «سلمى».

فابتسمت العجوز وقالت لها:

- ولكنك اسمك «سلمى».

فقالت لها الطفلة:

- نعم، ولأنها ستكون أفضل صديقة لي سيكون لها الاسم نفسه حتى تظل بالقرب مني، فلقد قالت لي «أميرة» أختي إنها في المدرسة عند الامتحان تجلس بالقرب من زميلتها «أميرة»؛ لأن لهما الاسم نفسه، وأنا لا أريد أن أبتعد عنها أبدا.

فضحكت الجدة هذه المرة وقالت لها:

- لكن هل سيسمحون لها بدخول المدرسة؟

فردت عليها الطفلة:

- بالتأكيد، فأنا سأجعلها نظيفة ومهذبة باستمرار.

كانت العجوز قد انتهت من صنع الثوب والطفلة تنظر إلى يديها وهي تضعه على الدمية بعين متلهفة فقالت لها الجدة:

- الآن أريد هذا الخيط الغليظ لأصنع لـ«سلمى» ضفيرتين.

فقامت الطفلة هذه المرة بسرعة وجاءتها بالخيط وهي تقول:

- بسرعة يا جدتي، أريد أن ألعب معها.

فقالت لها الجدة:

- اصبري يا «سلمى»، لقد أوشكت على الانتهاء.

وبعد أن جدلت الجدة ضفائر «سلمى» قالت لحفيدتها:

- سوف أسميها «سلمى» الصغيرة حتى نفرق بينكما، والآن سوف أصنع لها حذاء لتلعب معك.

فقالت لها الطفلة:

- لكني يا جدتي لا أرتدي الحذاء في أثناء اللعب.

فقالت الجدة:

- إن أردتِ أن تلعبي مع «سلمى» يجب أن ترتدي الحذاء في أثناء اللعب بالخارج.

فردت عليها باستسلام:

- حاضر يا جدتي من أجل «سلمى» الصغيرة.

* * *

كان «عبد المجيد» عامل البناء يعمل لدى أحد المقاولين بالأقصر وكان أحيانا ينتقل معه إلى القاهرة.. كانت مهارته في عمله وتفانيه فيه يجعلان صاحب العمل متمسكا به، على الرغم من ارتفاع أجره عن أقرانه من العمال.. بالإضافة لمهارته في البناء كان يستطيع عمل بعض أعمال النجارة أو الكهرباء أو النقاشة، وهذا ما جعله أكثر من عامل في عامل واحد.. كل من في قريته التي يعود إليها كلما انتهى من عمله كان يغبطه أو يحسده على ما أصبح فيه من سعة رزق وعافية، وهو لم يكن يتأخر عن مساعدة أي فرد يعرفه.. دماثة أخلاقه جعلت الجميع يحبه ويتمنى أن يزوجه ابنته أو أخته، لكنه لم يكن يريد غير «رقية» ابنة صانعة الدمى.. كانت أمها تصنع الدمى القماش وتعطيها لـ«رقية» وهي صغيرة لتبيعها للسائحين، وعندما كبرت «رقية» وصارت في سن لا تستطيع فيها أن تستدر عطف المشتري صارت تعطيها لأطفال آخرين على أن يعطوها جزءا من المكسب.. ضيق الحال وعدم وجود العائل دفعاها لذلك العمل.. كانت «رقية» شابة تقليدية بمفهوم قريتها؛ فهي لم تعبر المرحلة الابتدائية ولا تملك قسطا وافرا من الجمال ولا تملك أي قسط من المال.. أي يوجد منها الكثيرات.. لكنه أعجب بها أو أحبها.. لم يفكر في شيء غير أنه يريدها.. قابلها ذات مرة في مدينة «الأقصر» فقرر أن يتحدث معها على الفور.. كان يمكنه أن يذهب مباشرة إلى بيتها ويطلبها من أمها، لكنه أراد

أن يعيش مغامرة العاشقين التي يسمع عنها ولم يجربها من قبل.. عندما لمحته يقترب منها ابتسمت لكنها ادعت أنها لم تلحظه فقال لها:

- كيف حالك يا «رقية»؟

فابتسمت ولم ترد عليه، فقال لها:

- ألا تعرفينني؟ أنا «عبد المجيد» ابن الحاج «سويلم» الله يرحمه.

فأطرقت ببصرها إلى الأرض ولم ترد عليه، فقال لها:

- منذ مدة طويلة وأنا أريد أن أتحدث معك في أمر ما، لكني لم أكن أستطيع أن أتكلم في القرية.. أنت تعلمين أهلها ليس لهم شاغل غير فلان فعل كذا وفلان اشترى كذا.

فظلت الابتسامة تزين وجهها ولا ترد عليه، فاستطرد:

- ما رأيك فيّ يا «رقية»؟

فرفعت بصرها إليه وقالت له:

- وماذا تعتقد سيكون رأيي؟

فرد عليها:

- لو أعرف لما سألتك.

فقالت له:

- ماذا تريد بالضبط يا «عبد المجيد»؟

فرد عليها وهو يبتسم في فرح لنطقها باسمه:

- أريد أن أقابل والدتك.

فقالت له:

- وما شأني؟ ألا تعرف البيت؟!

وانطلقت في خجل وهو يرقبها بعينيه حتى اختفت.

* * *

جلست العجوز مع «رقية» ابنتها أمام باب الدار ترقبان «سلمى» وهي تلعب مع دميتها وقد ارتدت الحذاء حتى لا تغضبها.. كانت الحقول الخضراء ممتدة على مرمى البصر وكأنها ليست لها نهاية و«سلمى» منهمكة بالحديث إلى دميتها.. تلعب معها أحيانا.. تعنفها أحيانا.. تطلب منها حل بعض الأشياء أحيانا.. الجدة والأم ترقبانها بينما كانت «أميرة» نائمة بالداخل بعد أن أنهت اختبارها بالمدرسة وعادت منهكة.

- ربنا يكرمك يا «عبد المجيد» يا ولدي.

قالتها العجوز كعادتها في الدعاء لزوج ابنتها باستمرار، فقالت لها «رقية»:

- لقد تأخر هذه المرة في العودة.. لقد مضى أكثر من شهر، أنا قلقة عليه.. اتصلت به بالأمس ولم يرد عليّ.

فقالت لها والدتها:

- الغائب حجته معه.

ثم ضحكت وقالت لها حتى تخفف عنها:

- أضحك كلما أتذكره عندما أتى لزيارتنا أول مرة.. كان شديد الخجل ولم يستطع أن يقول كلمتين على بعضهما.

ثم سكتت قليلا واستطردت:

- لولا الملامة لقلت إني أحبه أكثر من ابني «سيد» الذي لا يلقي لي بالا ولا يهتم لأمر أحد سواه هو وزوجته.

فوضعت «رقية» يدها على كتفها ثم ضمتها ضمة رقيقة، فقالت لها:

- حتى عندما كنتم صغارا.. كنت أنت تعملين، أما هو فمنذ صغره «عوج» ولا يهتم بغير نفسه؛ لذلك رزقه ربه بزوجة مثله.. والله أنا لا أطيق رؤيتها، ربنا يكفينا شرها وشر عينها.. أحس بها تحسدك باستمرار وكأنها تستكثر عليك نعمة الله.. منها لله.

فقالت لها «رقية» لتغير سير الحديث:

- وكيف حال «سعدية» أختي؟

فابتسمت وقالت لها:

- بخير والحمد لله.

ثم ضحكت وهي تستطرد:

- وزوجها ما زال يضحك بلا سبب.

فقالت لها «رقية»:

- والله زوج «سعدية» رجل طيب.

فردت عليها الجدة:

- وأنا لم أقل غير ذلك، لكن والله ما عندي أعز من «عبد المجيد».

* * *

عندما رن الهاتف في وقت متأخر توقعَت الشر؛ فالأخبار السيئة هي التي لا تنتظر الصباح، أما الأخبار الجيدة فتنتظر أو لا تأتي مطلقا؛ لذلك هرعت لتجد رقم هاتف زوجها الذي كان مغلقا منذ يوم فردت على الفور لتسمع صوت غير صوته يقول لها:

- هل أنت زوجة «عبد المجيد»؟

فردت في توجس:

- نعم.. هل هو بخير؟

فرد الرجل بصوت متردد:

- لا أريدك أن تخافي عليه.. لقد وقع من على السقالة ونقلناه للمستشفى، لكنه الآن بخير، هو لم يستطع الكلام لكنه أراد مني أن أطمئنك عليه.. سوف يخرج بعد يومين ويريد أن يأتي أحد ليأخذه.. هل تسمعينني؟ سيدتي..

لكن بلا مجيب.

* * *

في غرفة منزله في قريته تمدد «عبد المجيد» على فراشه لا يستطيع الحراك.. لكنه ظل مستيقظا لاستقبال زائريه الذين أتوا في الظاهر للاطمئنان عليه بعد أن عرفوا ما حل به.. كانت «أميرة» ممسكة بذيل جلباب والدتها أينما ذهبت، بينما تقف «سلمى» بباب الغرفة ترقب والدها الممدد بلا حراك في خوف وعدم فهم، ممسكة دميتها بين يديها.. كان «سيد» - أخو زوجته - قد أتى لزيارته، وجاءت معه زوجته لتشاهد عن كثب ما حدث لـ«رقية».. الجدة تجلس كعادتها على الأرض بجانب الفراش وقد كست وجهَها علاماتُ الحزن والأسى.

- ألن يدفع لك المقاول تعويضا؟

سأل «سيد»، «عبد المجيد»، فرد عليه:

- أنا لست مسجلا في التأمينات؛ لذلك ليس لي شيء عنده.. لكنه دفع لي مصاريف المستشفى.

فقال له «سيد»:

- حسنا.. من الجيد أنه تكفل بالعلاج.

فقالت له الجدة:

- ما زال أمامه الكثير من العلاج وجلسات العلاج الطبيعي حتى يعود كما كان.

فقال لها:

- ربنا يقويه.. مصاريف كثيرة.. والله الواحد لا يعرف لماذا صارت الحياة صعبة هذه الأيام.. ما يأتي يكفي بالكاد مستلزمات البيت الأساسية.

فمطّت العجوز شفتيها بامتعاض وقالت بلهجة ساخرة:

- ربنا يقويك، مصاريف البيت وصاحبته كثيرة.

فقام «سيد» لأنه يعرف أن أمه ما دامت بدأت بالتقريع فلن تتوقف.

- على العموم حمدا لله على السلامة.. وأنا سوف آتي دائما للاطمئنان عليك.

ثم أردف على استحياء:

- وإذا احتجتَ لأي شيء أنا في خدمتك.

وانصرف بعد أن قبّله وقبّل والدته.. قامت العجوز بعد أن انصرف ابنها وقالت لـ«عبد المجيد» وهي تخرج من الغرفة:

- سوف أذهب لأتحدث مع «رقية».. نَم قليلا حتى ترتاح.

ثم خرجت وأغلقت باب الغرفة خلفها.. كانت «سلمى» لا تزال واقفة بالباب فأخذتها الجدة من يدها الخالية، بينما يدها الأخرى لا تزال متشبثة بالدمية.. جلست العجوز بجانب ابنتها التي كانت تجلس أمام

باب الدار وبجانبها ابنتها «أميرة» فجلست وأجلست «سلمى» في حجرها وقالت لها:

- ألم يعطك أخوك مالا؟

فردت عليها بحزن:

- قال لي إذا احتجتُ شيئا أطلبه منه.. فشكرته.

فقالت العجوز بأسى:

- طبعه.. لن يشتريه.

فقالت لها «رقية» وقد اكتسى وجهها بالجدية:

- المهم.. ماذا سأفعل الآن؟ ما كنا ندخره أوشك على النفاد وما زال أمامنا طريق طويل في العلاج، والله أعلم هل سيعود للعمل كما كان أم لا.

فردت عليها العجوز:

- إن شاء الله يعود أفضل مما كان.

فقالت «رقية»:

- أتمنى ذلك.. لكني فكرت في حل الآن.

فسألتها الجدة:

- وما هذا الحل؟

فأجابتها:

- سوف نعود لبيع الدمى.

فردت عليها بدهشة:

- لكنك كبرت على بيع الدمى.. أنت تعرفين أننا نجعل الأطفال الصغار يبيعونها حتى يرضى السياح أن يأخذوها منهم من باب الشفقة وحتى لا يطاردهم أحد من رجال الشرطة، فأقصى ما يمكن أن يحدث لهم أن ينهرهم أحد.

فقالت لها:

- ومن قال إني سأبيع؟ أنت أفضل من يصنع الدمى في قريتنا.. أنت تصنعين وأنا آخذ «أميرة» و«سلمى» وأعلمهما كيف تبيعان الدمى.. وربما آخذ معي من أطفال القرية من يريد العمل معي.

فقالت لها الجدة بارتياع:

- لكن مدرسة «أميرة».

فردت بسخرية حزينة:

- هي الآن في إجازة.. ثم أيّة مدرسة في هذه الظروف؟!

فقالت لها مرة أخرى:

- «سلمى» ما زالت صغيرة.

فردت «رقية»:

- وهذا ما سيجعل البعض يشتري منها.. أو بالأصح يأخذ الدمية ليعطف عليها.

فدمعت عين العجوز وقالت:

- كنت أتمنى أن يكون حظ الصغار أفضل من ذلك، هل عليهم أن يعيدوا ما كان؟!

فربتت ابنتها على كتفها وقالت بثقة:

- لا تحزني.. فترة وتمر.

لكنها لم تكن واثقة كما يظهر من صوتها.

* * *

كانت كالمفصل الذي لم يعمل منذ سنوات، لكنه بعد القليل من الشحم يعود كالجديد.. هكذا تذكرت الجدة المواد الخام التي يجب عليها أن تشتريها من أقمشة وخرز وخيوط وألوان.. لم تكن تصنع الدمى للبيع فقط، لكنها كانت تستمتع بذلك.. في داخلها تراه قيمة وفنا وحياة.

وقفت أمام البائع الأشيب، فما إن رآها حتى حملق بها ثم قال:

- الست أم «سيد».. كيف حالك؟ لم تأتي منذ مدة طويلة.

فنظرت إليه العجوز بعينين زائغتين ثم قالت له:

- «حسن»! كيف حالك؟ لقد شبت.. كيف حال والدك؟

فابتسم الرجل وقال لها:

- بخير والحمد لله، سيفرح إذا علم بعودتك للشراء من عندنا.

فردت عليه:

- أنا لم أشتر من غيركم.. المهم.. هذه ابنتي «رقية»، هل تتذكرها؟

فنظر الرجل إليها بدهشة وقال:

- كانت تأتي معك وهي صغيرة تمسك في ذيل ثوبك.. ما شاء الله صارت عروسة.

فقالت له:

- هي متزوجة الآن وعندها بنتان.. ولا أخفي عليك زوجها «بعافية»، وهذا ما جعلنا نعود للعمل.. أريدك أن تريحنا في الأسعار.. لن أوصيك.

فقال لها الرجل وهو يبتسم:

- المحل وصاحبه تحت أمرك.. أنت عشرة عمر يا أم «سيد».

كانت تكره أن تنادَى بـ«أم سيد»، لكن ما بيدها حيلة، اسم والتصق بها.

* * *

بدأت العجوز بقص القماش لتصنع الجسم الخارجي للدمى و«سلمى» تجلس جوارها تحشو الأجساد التي لم يتم غلقها بالخيط، بينما

«رقية» و«أميرة» تعملان بالمنزل وترعيان الرجل المريض.. نظرت «سلمى» لجدتها وقالت لها:

- لماذا يا جدتي لا أرى دمية أفضل من دميتي؟

فردت عليها الجدة:

- لأنني صنعتها خصيصا لك، أما هذه الدمى فسوف نبيعها.

فقالت لها:

- ألن تحزن الدمى عندما نبيعها؟

فردت عليها الجدة وهي تبتسم:

- ربما.. لكنها سوف تنسى.

فسألتها «سلمى»:

- هل ستنساني «سلمى»؟

فردت عليها العجوز:

- ستتذكرك بمقدار حبك لها.

فقالت لها «سلمى»:

- أنا أحبها أكثر من أي شيء؛ لأنها تذكرني بك يا جدتي.

فقالت الجدة:

- إذًا لن تنساك.

وبعد فترة كانت الجدة قد انتهت من حياكة الدمى فبدأت بتزيينها وصناعة أشكال مختلفة لملابسها، وبعد أن انتهت نادت على «رقية» وقالت لها:

- كيف حال زوجك؟

فردت عليها:

- بخير والحمد لله.

فأعطتها ما صنعته من دمى وقالت لها:

- ما رأيك يا «رقية» في هذه الدمى؟

فردت عليها:

- جميلة.. تسلم يدك.. لقد أتعبناك معنا.

فقالت العجوز بأسى:

- يا ليتني أستطيع فعل أكثر من ذلك.

ثم سكتت قليلا قبل أن تستطرد:

- سوف أذهب لأرى أختك؛ فهي مريضة.

فقالت لها «رقية»:

- لكن كيف ستذهبين إليها بمفردك؟ لقد كان «عبد المجيد» هو من يوصلك.

فردت عليها:

- قريتهم قريبة ولن أتأخر عندها.. ثلاثة أيام على أقصى تقدير وأعود بإذن الله.

فقالت لها «رقية»:

- لا تتأخري عليّ يا أمي، فأنا - كما تعلمين - لا أعرف عمل أي شيء من دونك.

فابتسمت العجوز وقالت لها:

- لا تخافي.. سأعود على الفور.

* * *

لم يكن الطريق إلى الأقصر طويلا.. ذهبت فيه «رقية» كثيرا بمفردها، لكن هذه المرة معها «أميرة» و«سلمى» التي كانت قد علقت دميتها برقبتها عن طريق حبل غليظ خوفا عليها من الضياع أو النسيان.. وعندما وصلن فهمن من الأم ما يجب عليهن فعله.. كانت «أميرة» الكبرى سريعة التفاعل والفهم.. ليس فيها الخجل الذي جعل «سلمى» تقف في مكانها إلى أن أخذتها أختها من يدها لتعلمها كيف تبيع الدمى.. كان يمر عليهن السائحون فيقف البعض ليصورهن وهن يستجدين لبيع دمية أو يشتري منهن دمية من باب الشفقة أو ليُري أهله عند عودته صنفا من صنوف الفنون الشعبية التي امتاز بها الصعيد.. لم تبع «سلمى» دمية واحدة.. بل

ظلت تنظر للأطفال من حولها وهم يبيعون ما معهم ثم يعودون لمن يسيّرهم فيأخذون دمية أخرى لبيعها.

نادتها والدتها التي كانت ترقبهما من بعيد وبجانبها كيس كبير به الدمى التي لم يتم بيعها بعدُ، فركضت إليها «سلمى» على الفور، فقالت لها:

- لماذا لم تبيعي الدمية التي في يدك حتى الآن؟

فردت عليها ببراءة:

- لا أستطيع أن أبيع الدمى؛ فأنا أشفق عليها.

فقالت لها الأم بعنف:

- هكذا لن نجد ما نأكله.. يجب أن تتعلمي كيف تبيعينها.

كانت الأم ترى أن حب البنت للدمى ظاهرة غير صحية.. خاصة الدمية التي في رقبتها.. وبينما تفكر في طريقة لإقناع البنت ببيع الدمى أتى إليها رجل أجنبي ومعه المرشد الخاص به فقال لها:

- مرحبا يا سيدتي.

فنظرت إليه «رقية» بدهشة للطريقة الطيبة التي يعاملها بها وقالت له:

- بخير يا بيه.. أي خدمة؟

فقال لها المرشد:

- أنا معي صحفي أجنبي يريد أن يأخذ لك بعض الصور مع ابنتك بجانب الدمى ليكتب موضوعا في المجلة التي يعمل بها.

فأظهرت «رقية» الرفض بتجهم وجهها فأسرع الرجل وقال لها:

- لا تخافي.. الصور سوف تنشر في مجلة أجنبية.. لن يراها أحد هنا.

وسكت ليثير فضولها ثم استطرد:

- سيدفع لك مبلغا كبيرا نظير هذه الصور.. كل ما عليك أن تجلسي على طبيعتك كأنك لا ترينه.

فقالت له:

- كم سيدفع؟

فابتسم وقال لها:

- سأجعله يعطيك مائة جنيه وأنت جالسة لا تعملين أي شيء.

فتهللت أساريرها ووافقت على الفور.. فتحدث المرشد إلى الصحفي الذي فرح لموافقتها ثم بدأ بتصويرها هي وابنتيها.. وبالأخص البنت الصغرى ودميتها المعلقة في رقبتها.. يتنقل حولهن ويدور حتى انقضى ما يقرب من نصف ساعة.. فتحدث الصحفي إلى المرشد وأعطاه المال الذي قدمه لـ«رقية» وهو يقول:

- نريد الدمية التي في رقبة ابنتك.

فنظرت له «سلمى» برعب وقالت له «رقية»:

- كان الاتفاق على التصوير فقط.

فقال لها:

- الرجل يريد الدمية؛ لأن الموضوع في الأساس سوف يكون عن الطفلة.. وهو يريد الاحتفاظ بالدمية.

فردت عليه:

- لكن هذه الدمية عزيزة عليها.. ألا يمكن أن يأخذ أي دمية أخرى؟

فقال لها:

- هو يريد هذه الدمية بالذات؛ لأنها هي التي ظهرت في الصور وهي تختلف عن باقي الدمى في شكلها.. خمسون جنيها إضافية.. ماذا تقولين؟

فنظرت «رقية» إلى «سلمى» التي ترقرقت الدموع في عينيها وأخذتها على رجلها وقالت لها:

- من أجل والدك يا «سلمى».. أنت تعلمين أنه مريض ويحتاج المال.

فخلعت «سلمى» الدمية من رقبتها بيد مرتجفة والدموع ترتعش في عينيها.. فأخذتها «رقية» على الفور وأعطتها للرجل وقبضت الثمن.. كانت ترى أنها بهذا تخلصت من تلك الدمية التي التصقت بابنتها وسوف تستطيع بيع الدمى بعد ذلك.

* * *

عندما عادت الجدة كانت «رقية» في انتظارها في المنزل.. فقد كان الوقت ليلا وعمل النهار قد انقضى.. فما إن دخلت حتى قابلتها «رقية» بالأحضان والقبلات.. فقالت لها مداعبة:

- هل أوحشتك يا أم «أميرة»؟

فردت على الفور:

- طبعا يا أمي.

فعادت الجدة لتسألها:

- وكيف حال العمل؟

فأجابتها:

- بخير والحمد لله.. «أميرة» تعلمت بسرعة وتبيع الآن بمفردها دون مساعدة من أحد.

فعادت الجدة لتسألها عن «سلمى» فقالت لها:

- «سلمى» مريضة منذ أن نزلت معي أول يوم.. فأضطر أن أتركها بجانب والدها حتى أعود.

فقالت لها الجدة بذعر:

- وماذا بها؟

فحكت لها الأم ما حدث مع الصحفي وأنهت حكايتها بقول:

- يجب أن تعتاد الأمر.. يومان وسوف تعود لطبيعتها.

فقالت لها الجدة:

- لا، لن تعود بمفردها إلى طبيعتها.. أنا أعرف كيف أعالجها.. ناوليني العدة قبل أن تستيقظ «سلمى».. سوف أعيد إليها دميتها.

* * *

عندما استيقظت «سلمى» اندهشت لأنها وجدت دميتها بجانبها، فأخذتها بفرح شديد وانطلقت إلى والدتها وقالت لها:

- كيف عادت الدمية يا أمي؟

فردت عليها:

- اسألي جدتك.

فقالت «سلمى» في فرح:

- هل عادت جدتي؟ أين هي؟

فسمعت «سلمى» صوت الجدة يناديها، فذهبت إليها على الفور وارتمت بين أحضانها وقالت لها:

- كيف أعدت الدمية يا جدتي؟

فقالت لها الجدة:

- لقد قابلت الرجل الذي أخذها وقلت له إنك مريضة بسبب حزنك لفراقها فأعادها على الفور.

فقالت «سلمى»:

- لكن أين الحبل الذي كان في رقبتها؟

فردت الجدة:

- كان يضايقها فخلعته عنها.. ولقد صنعت لها ثوبا جديدا.. ما رأيك؟

فقالت «سلمى»:

- رائع يا جدتي.

ثم قبّلتها وانطلقت إلى والدتها وقالت لها:

- سوف آتي معك لبيع الدمى.. لكني سأترك «سلمى» هنا حتى لا يأخذها مني أحد مرة أخرى.

وانطلقت إلى الخارج لتحكي لدميتها ما حل بها في الأيام الماضية التي ابتعدت فيها عنها وتعدها أنها ستبقى معها إلى الأبد.

* * *

على متن الطائرة كان الصحفي الأجنبي يكتب بعض خواطره على حاسوبه النقال حتى لا ينساها:

«تعجبت عندما رأيت المعابد الخالدة يدور حولها أحفاد أصحابها يتسولون الحياة منا ونحن الذين كنا نعيش على فضل موائد المعرفة والنور اللذين أتيا إلينا من هنا.. من مصر.. هذه حكاية بنت صغيرة تصنع الدمى لا لتلعب بها بل لتبيعها من أجل الحياة.. تبيع طفولتها

وأحلامها من أجل المال.. إنها البنت السمراء التي قابلتها في الأقصر بجانب المعبد العظيم والفقر الحديث»..

ونظر إلى الدمية التي أخذها معه في يده وابتسم لأنها كانت تذكره بكل ما شعر به وهو ينظر في عينيها المتوسلتين.. في عيني «سلمى».

الحافز

يجب أن يفقد من وزنه.. أخبره الطبيب بذلك في آخر مرة كان «حمدي» عنده.. وفي كل مرة كان يخبره بذلك.. يجب أن تفقد من وزنك.. لقد حاول «حمدي» كثيرا لكنه فشل.. جرب الأعشاب وسار خلف إعلانات التلفاز التي تظهر فيها امرأة تصلح لكي تقوم بدور أنثى الفيل في أحد الأفلام الهندية وبعد أن شربت الكوب تتحول إلى غزال شارد.. وشرب «حمدي» جالونات وجالونات من أعشاب التخسيس.. وكانت النتيجة مرارة في الحلق وثباتا في الوزن.. كان يقول لنفسه: ربما لا تصلح أي طريقة مع أي شخص. فقرر أن يجرب الحمية الغذائية تحت إشراف طبيب.. لكن أي طبيب؟ عاد مرة أخرى إلى التلفاز ليجد ذلك الطبيب الأصلع الذي يأتي مرة أسبوعيا على القناة نفسها التي تعلن عن أعشاب التخسيس ليتحدث عن الحمية الغذائية.

- لا.. لا.. أعشاب إيه؟ مش أي حد ينفع معاه طريقة الأعشاب دي.. وبعدين لازم نكشف على المريض الأول ونشوف الأعشاب ممكن تسبب هبوط ولا لأ، خاصة مريض القلب ما ياخدش أي حاجة.

فقال لنفسه:

- والله كلام معقول.. بس هو الدكتور ده ماله عامل زي العجل كده؟! وأنا مالي؟ المهم أخس.

كانت أرقام الهاتف الخاصة بالعيادة تظهر باستمرار، وكذلك العنوان.. كان البرنامج فقرة إعلانية للطبيب.. وقد علم بعد ذلك أن هناك أطباء يدفعون للظهور في مثل هذه البرامج.

- عيادة دكتور...؟

- بعد إذن حضرتك.. كنت عايز أسأل على نظام الكشف.

- أول مرة حضرتك بتحجز وتاخد معاد في خلال أسبوع.

أسبوع؟ ده لازم شاطر قوي والعيادة مليانة زباين.. وبعدين أكيد دي عيادة نضيفة والست اللي بتتكلم دي صوتها ناعم قوي.

- بعد كده حضرتك بيتم الكشف عليك وتاخد النظام الغذائي في نفس اليوم.

أمال يعني هاجي آخده تاني يوم يا عبيطة؟

- إلا لو الدكتور طلب منك بعض التحاليل اللي ممكن نعملها لك بتخفيض عن طريق معمل عارفينه.

ربنا ما يجيب تحاليل.. وعموما معايا جوّه دولاب تحاليل.

- ثمن الكشف...

ما هذا؟ بالتأكيد سمعت غلط.

- والمتابعة بـ... بتدخلوا خمسة مع بعض يراجع لكم الدكتور النظام الغذائي ويشوف الأوزان.

كمان خمسة مع بعض يا ولاد الـ... يا حرامية.

- طيب متشكر جدا.

أغلق سماعة الهاتف تملؤه الدهشة من أسعار الكشف عند ذلك الطبيب.. لو كان يعرف أنه سيضطر لإنفاق هذه الأموال كلها من أجل أن يفقد وزنه ما أكل أو شرب.. لكنه تذكر أنه بالفعل لا يأكل أو يشرب لأنه لا يملك الكثير الذي يمكّنه من الإنفاق بسخاء على الطعام.

وهكذا فقد الأمل في أن يفقد وزنه وإن كان يساوره بعض الأمل في بعض الأحيان فيأتي بأعشاب جديدة خصيصا لسد الشهية فيلاحظ إقباله المتزايد على الطعام.

* * *

- فرح «سامية» الشهر الجاي.

«سامية» أخت زوجته التي كانت تخبره بميعاد الفرح.. أراد أن يقول لها: وأنا مالي؟ جتك مصيبة عليكي وعلى أختك في يوم واحد. لكنه قال:

- والله! ألف مبروك.. ربنا يتمم بخير.

- هتروح إزاي؟

- لما يحددوا المكان هنروح مواصلات.

فتأففت زوجته وقالت في ضيق:

- لا يا ذكي.. قصدي هتلبس إيه؟

ذكي.. اسم الله عليكي يا فالحة.

- هلبس البدلة الكحلي اللي حيلتي.

فضحكت زوجته في سخرية وقالت له:

- ودي هتخش فيك إزاي؟

ربنا ينتقم منك يا بعيدة.. اللي يسمع كده يفكرك بتلعبي سباحة.

- هتْحِشر والسلام.

- طيب تعالى جربها عشان لو ضيقة ننزل نشتري لك بدلة.

لأ.. نشتري لأ أبوس إيدك.. يا رب تطلع مقاسي.

وحاول بكل الطرق أن يُدخل نفسه أو بالأصح يحشرها في البدلة، لكن بلا جدوى.

- مش قلت لك هتطلع ضيقة؟

واسودت الدنيا في عينيه.

* * *

وسط البلد، حيث محلات الملابس مصطفة على جانبي الطريق تجتاح أحلام المارة وتناديهم بواجهاتها الزجاجية المضيئة.. لم يذهب

«حمدي» إلى وسط البلد كزبون منذ سنوات.. كان يمر على استحياء من أمام محالها ليعرف الأسعار من باب الفضول، لكنه في تلك المرة لأنه يريد أن يشتري فقد وقف طويلا يتأمل.. لا الملابس، لكن أثمانها..

- الحاجة مولعة.. أقل بدلة عليها القيمة بـ...

قالها لزوجته التي ردت عليه بازدراء:

- هي الأسعار كده دلوقتي.. انت اللي مش عارف حاجة.

- لأ أنا عندي حل تاني.. مش هنشتري حاجة.

* * *

كانت بدلته كحلية اللون ذات طراز قديم، لكنها ما زالت محتفظة برونقها.. هو الآن يدخل فيها بالكاد، لكنها تفي بالغرض.

- ازيك يا «حمدي»؟ عامل إيه؟

- الحمد لله.. ألف مبروك لـ«سميرة».

- الله يبارك فيك.. بس إيه الحلاوة دي يا عم؟

- حلاوة إيه بس؟ ربنا يجبر بخاطرك.

- لأ بجد قول لي انت بتحب جديد ولا إيه؟ انت خسيت كده إزاي؟

فقال «حمدي» في سعادة بالغة:

- هو باين عليّ؟

- طبعا يا ابني، ده انت كنت - ولا مؤاخذة - فشلة.

- فشلة؟ ماشي يا محترم.

- استخدمت أعشاب التخسيس بقى ولا إيه؟

- بص يا ابني.. استخدم أي حاجة، المهم الحافز.

وبدأ يشرح له فلسفته للتخسيس.

- يا عم أهو كلام.. لو الكلام بيخسس كانت نسوانًا بقت ملكات جمال.. الحق البوفيه اتفتح.

فنظر «حمدي» إلى الطعام بحسرة.. سوف يعود كما كان لو عاد يأكل بشراهة.. لا يهم.. لقد انتهى الفرح وبات دخوله في الحُلة بلا قيمة؛ لذلك بعد قليل قرر أن يأكل.. وبكل قوته.

الميراث

عمتي «إحسان» تتشبث بقوة في الحياة ولا تريد أن تتركها بسهولة.. بهذا كانت تتحدث نفس «جودت» إليه كثيرا.. وكثيرا ما كان يسأل نفسه صراحة: لماذا لا تموت عمتي وتريحني؟ هي آخر ما تبقى له من أقاربه؛ فهو سليل عائلة الباشوات الذين أممت أموالهم بعد الثورة.. فمات جده على الفور.. وصمد والده «سالم».. لكن يبدو أنه لم يصمد طويلا.. ولحقت به أمه حتى صار من المألوف في هذه العائلة الموت أو الهروب للخارج، ولم يعد له غير عمته البخيلة.. يتذكر كيف استطاعت أن تسترد جزءا كبيرا من ثروة جده لكن باسمها.. يتذكر عندما كان صغيرا سمعها تتحدث إلى أبيه عن ميراث الجد.. قال لها والده:

- أنا لم أطلب منك شيئا من الأموال التي استرددتها.

فقالت له:

- لكنه حقك.. إنها أموال والدنا.

فقال لها باستهزاء:

- وكيف أعدتها أيتها الأميرة؟ هل أمرتهم فاستجابوا على الفور، أم استجديتهم فرفقوا بحالك، أم عندك أسلوب آخر؟

فردت عليه بغضب:

- أنا لا أسمح لك بمثل هذه التلميحات.

فقال لها بازدراء:

- لقد رآك الجميع مع ذلك الضابط.. الفلاح.. الذي كان يتمنى في يوم من الأيام أن يعمل عندنا خادما.. اليوم تجلسين معه في النادي بمنتهى الفخر.

فقالت له بتحدٍّ:

- سوف نتزوج.

فابتسم «سالم» بحسرة ومرارة:

- عندما يفرغ منك سوف يتركك.. وقد أخذتِ ثمن ما قضى معك من أيام من أموال والدنا الباشا الذي لم يزوجك حتى الآن لأنه لم يكن يرى أحدا جديرا بك.

فضحكت «إحسان» في ما يشبه الجنون وقالت له:

- أنت لم تفق حتى الآن.. لقد مات الباشا.. هؤلاء الفلاحون في الزي العسكري صاروا هم الباشوات.

ثم بكت وقالت له بنشيجها وكأنها تحاول تبرير موقفها:

- أنا لا أستطيع أن أتحمل الجوع أو الحياة الخشنة التي تحياها الآن.

فرد عليها بصرامة:

- الجوع أهون من العار.

فقامت العمة ومسحت دموعها وخرجت وهي تقول:

- لقد عرضت عليك حقك، لكنك رفضته فلا تلُم إلا نفسك بعد ذلك.

وصفعت الباب خلفها بقوة.

يتذكر «جودت» ويقول لنفسه: يعني لازم كنت تعمل فيها خضرة الشريفة؟ أهي فضلت تصرف في الفلوس لغاية لما كركبت وعجزت والفلوس لسه ما خلصتش.. لكنه لم يكن يهتم بالمال.. اهتمامه الآن بالفيلا التي تقطنها عمته.. أرضها سوف تُباع بالكثير.. لو ماتت العمة الآن سوف يصبح من الأغنياء.. لا يمكن أن نقول سوف تحل جميع مشاكله فقط.. بل يمكنه حل مشاكل شارع بأكمله.

- لكنها أموال أتت بطريقة غير مشروعة.

هكذا كان يتحدث إليه ما بقي لديه من ضمير، لكنه كان قوي الحجة كثير الجدال فكان يقول:

- وما الذي أخبرني أنها أتت بطريقة غير مشروعة؟

- والدك ورفضه إياها.

- لقد كان رجلا معقدا لما فعلته الثورة به.. أرأى شيئا بعينيه؟

- هذه الأشياء تُحس ولا تُرى.

- يجب ألا نأخذ الناس بالظن.. ثم إنها أموال جدي.

- وكيف أعادتها عمتك؟

- أعادتها بأيّة طريقة.. ربنا يحاسبها، المهم أنها ستؤول إلى صاحب النصيب بطريقة شرعية.

وهكذا صارت وظيفة «جودت» الانتظار.. المنتظر موت عمته.. انتشرت مثل هذه الوظائف؛ فهناك المنتظر لموت عمه أو أبيه أو أمه.. كان من الممكن أن ترى بعد فترة دار عرض عليها فيلم «المنتظرون».. لذلك كان يقول لنفسه إنه أهون ممن يتمنى موت والده.. هو يتمنى موت عمته.. عندما قرر أن يزورها وهي لم تكن قد رأته منذ سنوات طويلة قابلته بجفاء.. كان قد دخل عليها فاردا ذراعيه عن آخرهما.

- أهلا.. كيف حالك يا عمتي؟

فتركته يقبلها دون أن تحرك ساكنا وقالت له:

- أهلا..

فعلم على الفور أن هذه السيدة لن يأخذ منها أي شيء إلا بعد وفاتها.. لكن متى؟ إنه يستعجل ذلك اليوم؛ فعمله بالكاد يكفيه مقومات الحياة.. وهذا منتهى الأحلام في هذا الزمان.. غيره لا يجد قوت يومه.

كان مما ثبّت فكرة أن الحل في موتها أنه كلما حكى لأحد الزملاء في العمل عن عمته وأنه الوريث الوحيد لها كان يسمع تعليقات من نوع: ما تبقاش تنسانا بقى يا عم لما ربنا يكرمك.. يا سلام دي لو تموت وتورث ياض يا «جودت» ده انت تبقى طاقة القدر اتفتحت لك.. إلى آخر تلك التعليقات.

فتزينت الفكرة إلى نفسه وصار لا يخجل من التفكير فيها أو البوح بها.. بل كانت أساس خطبته من «سلوى» أنه سوف يرث.. وكان شرط والدتها ألا تنتظر مدة طويلة فكان يقول لها:

- ربنا يسهل.. يفرجها من عنده.

لكنها خيبت الظنون.. وظلت متشبثة بقطار الحياة تأبى النزول منه، ومرت السنوات وينست «سلوى» من موتها فتركته.. وينس هو من كل شيء فهجر الدنيا ونسيها وظن أنها لن تموت.. هنا فقط تحقق ما كان قد فقد الأمل في حدوثه.. كان أهم جرس هاتف في حياته.. في جوف الليل.. كأن الجميع يختار ذلك الميعاد حتى يخبرنا بالأخبار الهامة.. يرفع السماعة ليسمع صوتا وقورا يقول له:

- أستاذ «جودت»؟

- نعم.

- البقية في حياتك في «إحسان» هانم.

- بجد؟ قصدي إمتى؟

- من شوية.. أنا في المستشفى وكانوا بعد إذنك عايزين الحساب و... لا يهم.. يأخذون ما يريدون.. كم المطلوب؟ إنه كل ما أدخره.. لا يهم المهم الأرض.. لقد صار كل شيء لي الآن.. كانت تعطيني في حياتها خيرا لها من أن آخذ كل شيء بعد موتها.

* * *

مستشفى الأمراض العقلية.. هناك صراخ لا يمكن معه تفسير ما يقوله صاحبه.. فسأل ممرض زميله:

- مين اللي بيصرخ ده؟

- «جودت» بيه يا سيدي.

- هو إحنا كنا ناقصينه؟ طول النهار صويت ما بيزهقش؟ وفاكرنا خدامين عنده، لا علاج نافع ولا كهربا نافعة.. هو بالحق كان إيه اللي رماه هنا؟

- بيقولوا كان ليه عمة وماتت.. كان فاكر إن عندها فلوس كتير لكن ساعة الحساب طلعت راهنة كل حاجة.. بعيد عنك دي حالته من ساعتها.

الشك

كان «صبري» شريكا في شركة استيراد وتصدير.. في الحقيقة كانت استيرادا، والتصدير كان للسلع المستوردة نفسها.. تتم إعادتها لجهة الاستيراد إذا كان فيها عيب.. هذه الأيام المنتجات الصينية تملأ جميع البيوت تقريبا.. وشركته تستورد أي شيء: لعب أطفال.. أجهزة حاسب.. ملابس.. أجهزة كهربائية.. فتيات للعمل في البيوت.. أثاث.. كل ما خطر ولم يخطر لك على بال.

ليس سير العمل ما يؤرقه؛ فالعمل يسير على أفضل حال، لكنها زوجته «ناهد».. نعم تطلب المال باستمرار، لكنه ميسور الحال.. تخرج كثيرا من البيت، لكنه لا يهتم؛ لأنه معظم الوقت في العمل.. ما يؤرقه شكه في أنها تخونه.. لا يدري بالضبط ما جعله يظن فيها ذلك الظن.. إن الشك يقتله.. يظل ممددا بجانبها بالليل لساعات طويلة يفكر وهو يدَّعي النوم.. لكنه لا ينام.. الشك يقتله كل يوم ألف مرة والنار تشتعل فيه كلما تخيلها في أحضان رجل غيره.. إنها زوجته له وحده.. لكن من هو؟ هل أصدرت الحكم وتأكدت أنها خائنة؟ وكيف أتأكد؟ الطريقة القديمة..

يجب أن أراقبها.. سأخبر شريكي في العمل أني سأذهب إلى قريتي فلن آتي إلى العمل وأخبرها أني سوف أذهب إلى الإسكندرية لإنهاء أوراق بعض السلع وأراقبها.. طريقة قديمة.. لا يوجد عندي حل آخر.

في الغد ذهب «صبري» واستأجر سيارة؛ لأنها بالطبع ستتعرف على سيارته إذا سار خلفها بها، واشترى نظارة سوداء ضخمة وقبعة.. كان مظهره يقول لأي شخص يراه «أنا أراقب شخصا ما».. ترك السيارة بالقرب من منزله وذهب راجلا إلى المنزل.. عندما دخل غرفته كانت لا تزال نائمة.. نظر إليها وهي أمامه في حسرة.. لا يمكن أن تخونني.. ما هذه السخافة التي كنت أفكر فيها؟ سوف أعيد السيارة وأعود إلى العمل.. وبعد يومين تعود إلى شكك؟ فلتقطع الشك باليقين وتنته إلى الأبد من هذا الأمر.

بدأ في ترتيب ملابسه في حقيبة صغيرة، فأيقظها صوته وهو يفتح خزانة الملابس، فقالت له بصوت ناعس:

- إيه يا «صبري» رايح فين؟

فرد عليها بتلعثم لأنه لم يكن معتادا على الكذب:

- مسافر إسكندرية.

فسألته بدهشة:

- فجأة كده؟ ما قلتش ليه إمبارح؟

فرد عليها دون أن ينظر إليها:

- السفر جه فجأة.

فقامت متثاقلة واحتضنته من ظهره ووضعت رأسها على كتفه من الخلف وقالت له:

- ما تتأخرش يا حبيبي.. هتقعد قد إيه؟

لا يمكن أن تكون خائنة.. لا بد أنني سيئ الظن.. لكن لماذا تسأل عن موعد عودتي؟ وكيف لا تسأل؟ يجب أن أمضي إلى النهاية.

- يومين.. تلاتة.. على حسب الظروف.. هنبقى على اتصال.. مش عايزة حاجة وأنا جاي؟

فقبّلته وقالت له:

- سلامتك يا روح قلبي.

فهمّ بالانصراف، لكنها قالت له:

- ما سلمتش على «أشرف»؟

- سيبيه نايم.. مع السلامة.

وانطلق في مهمته السرية.

* * *

ظل «صبري» جالسا في السيارة في مكان كثيف الظل يرى باب المنزل من بعيد.. يراها بعين الخيال تتحدث إلى عشيقها في الهاتف وتضحك في سخرية منه.. من زوجها الأبله المخدوع.. تلك الخائنة.

لكن الوقت طال عليه ولم تظهر زوجته، حتى بدأ يشعر بالملل.. ربما لن تخرج اليوم.. وبدأ يفكر في الرحيل عن مكمنه.. لكنها ظهرت بكامل زينتها و«أشرف» ابنهما يسير بجانبها.. كان طفلا جميلا يشبهها كثيرا.. صاحب ملامح أنثوية هادئة.. بالطبع من غير المنطقي أن تذهب لعشيقها ومعها الولد.. أخذت سيارتها وهو خلفها بالسيارة الغريبة عنها.. الشوارع مزدحمة بطبيعتها فلن يكون هناك خوف من فقدها.. السير ببطء.. اتجاه سيرها يخبره أنها سوف تذهب إلى النادي.. إذًا ستترك الطفل هناك وتذهب إليه.. سوف يقف بالسيارة قبل النادي بقليل وينتظرها ليراقبها وهي خارجة.

ومر الوقت ولم تخرج.. غلبه النعاس في السيارة لتعبه الشديد أياما متتاليات.. فاستيقظ فزعا واستغرق الأمر أقل من دقيقة بقليل حتى يعود إليه وعيه.. هل خرجت في أثناء نومه؟ لا يعرف.. سوف يدخل ليبحث عنها.. لكن ماذا لو رأته؟ سوف يقول لها إن السفر ألغي فقرر الذهاب إلى النادي ليقضي اليوم معها.. دخل النادي الذي كان هادئا وسار فيه بخوف يتلفت يمينه ويساره.

- أهلا.. إزيك يا أستاذ «صبري»؟

فاجأه الصوت الذي كان لمدرب السباحة، فقال له:

- الحمد لله، إزي حضرتك يا كابتن؟

كان يحاول أن يبدو طبيعيا، لكنه ظهر غير ذلك.

- «أشرف» على حمام السباحة هو والمدام.

فرد عليه «صبري» متلعثما:

- ما أنا عارف، أنا كنت رايح بس بجيب حاجة.. مع السلامة.

عندما ذهب إلى حمام السباحة لمح زوجته تجلس مع مجموعة من سيدات المجتمع الفضليات مثل زوجته والأطفال في حمام السباحة.. كانت زوجته تهم بالانصراف؛ لذلك عاد مهرولا إلى السيارة خشية أن تراه.. وظلت عيناه على باب النادي معلقة به.. السيارات تمر الواحدة تلو الأخرى.. هذه هي.. هيا سأسير خلفها.. هل ستعود إلى المنزل؟ لكن هذا ليس طريق المنزل، وبالطبع لن تذهب بالطفل إلى ذلك النذل.. لكن ما ذنبه؟ هي التي مكنته منها.. المرأة هي التي تبدأ كل شيء.. تظل تناديك بنظراتها حتى إذا أقبلتَ أدبرتْ، فإذا تماديت صفعتك لتذهب وتطلبها من أهلها.. صحيح العين تزني.. هذا الطريق يؤدي إلى بيت والدتها.. الآن فهمت.. سوف تترك الطفل هناك عند أمها وتذهب إلى حال سبيلها.. أمها

مشتركة معها! لا أظن هذا صحيحا.. أنا لا أطيقها لكنها - والحق يقال - لن ترضى بمثل ذلك الوضع المشين.

انتظر كما انتظر عند البيت حتى أكله الملل وظل يلعن الشك وفترت عزيمته وبدأ الجوع يدق جدران معدته في البداية بتؤدة وأدب حتى إذا لم يجد مجيبا بدأ الصراخ والعويل.. سوف يذهب الآن.. يبدو أنها ستظل اليوم عند والدتها.. لكن قبل أن يمشي سوف يقوم بحركة خبيثة.. سوف يتصل بها ليسألها عن يومها.

- ألو.. أيوه يا حبيبتي.. أنا وصلت من شوية.

- هو انت ما سافرتش بالعربية؟

ما هذا السؤال المباغت الذي لم يكن له على بال؟

- لأ، أصلي ما كنتش قادر أسوق فسافرت بالقطر.

- ما عرفتش هترجع إمتى؟

- كمان يومين، وما تخافيش قبل ما أرجع هقول لك.. انتي فين؟

- عند ماما.

- سلمي لي عليها.. و«أشرف» عامل إيه؟ الحمد لله.. نازلة؟ هتخرجي مع «ريم»؟ ماشي.

إذًا سوف تخرج.. هل أظل في إثرها أم أذهب؟ ظهرت من جديد وركبت سيارتها فقال لنفسه إنه ليس هناك ما يضير في أن يكمل ما بدأه..

تكلمت في هاتفها وهي تسير بالسيارة.. يبدو أنها تطلب من «ريم» أن تنتظرها في مكان ما.. إنه يستريح لـ«ريم»؛ فهي من عائلة محترمة محافظة.

هل سيقتلها إذا تأكد من خيانتها؟ والفضيحة؟ إذًا ستبتلعها؟ ما فائدة كل هذا إذًا؟ سأطلقها دون أن أعطيها أي شيء.. إذًا فالمشكلة مشكلة المال.. ليس بالضبط لكنه الانتقام.. لا يسلم الشرف الرفيع.. أي شرف؟ كل عام وأنتم بخير.. وأنت بالصحة والسلامة.

ذهبت «ناهد» مع «ريم» إلى أحد المطاعم فقرر أن يذهب ليأكل هو أيضًا في أي مكان قريب.. مثانته ستنفجر.. فتوجه مباشرة إلى دورة المياه وتخلص من الحمل الثقيل الذي عذبه.. أحس براحة نفسية والخدر يسير في جسده.. يبدو أنها بريئة.. سوف يأكل بسرعة ويعود إليها في المطعم ليرى ما ستفعل بعد ذلك.. لكنه عندما عاد كانت قد اختفت.. ترى أين ذهبت؟ بعد هذا التعب كله فرت.. سار بالسيارة على غير هدى لا يدري إلى أين.. لا يهم.. إنها في الأغلب بريئة.. سوف أبيت ليلتي في أي فندق وفي الغد أراقبها من جديد.

* * *

ولم يختلف الغد كثيرا عن الأمس.. يا لسخافة أفكاري.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. مرمطت نفسي من غير سبب.. يكفي هذا.. سوف أعود آخر الليل إلى البيت.

وعندما عاد كانت زوجته نائمة في مضجعها فنظر إليها وحمد الله عليها.. إنها نعمة بالفعل.

* * *

- لو أخوك عرف اللي بنا هتبقى مصيبة.

قالتها «ناهد» لـ«فوزي» شقيق «صبري» وشريكه في الشركة، الذي رد عليها بتوتر:

- لما قال لي إنه رايح البلد وقال لك إنه مسافر إسكندرية شكيت إن فيه حاجة.. أنا متهيألي إنه شاكك فيكي بس ما يعرفش حاجة عني.

فردت عليه بسخرية:

- أفرح أنا بقى إنه شاكك فيّ؟

- لأ، أنا قصدي بعد ما قعد يراقبك طول اليوم واتأكد إنك برينة هينسى.. المهم خليكي طبيعية معاه لحد ما نخلص منه.. الدوا اللي بديهوله على إنه مقويات هيريحنا منه.

- نفسي بقى نعيش أنا وانت و«أشرف».

- وأرجع فلوسي اللي الأفندي سرقها مني.

- هو بالحق كان حقه؟

- بلا حقه بلا زفت، كلها فلوس أبونا.

- طيب ما هو خلاك شريكه في الشركة.

- هو انتي معايا ولا معاه؟

- أنا مع السلامة.

وضحكا.. وفي أثناء ضحكهما دخل عليهما «صبري»، فقالت له «ناهد» على الفور:

- إنت اتأخرت ليه؟ «فوزي» مستنيك من بدري وكان هيمشي.

- لأ مفيش، أصلي تعبت شوية وانا جاي في الطريق.

فنظر «فوزي» إلى «ناهد» نظرة ذات مغزى فانصرفت لتتركه مع شقيقه الذي قال له:

- فيه حاجه يا «فوزي»؟

- عقود كنا عايزينك تمضيها وما ينفعش تتأخر.. إنت شكلك تعبان.. بص أنا معايا بقى مجموعة فيتامينات وصاية أهو الشريط ده كل يوم واحدة لحد ربنا ما يجيب الفرج.

- ربنا يكرمك يا «فوزي».. مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه.

نظرة السماء

كان «بنيامين» قلقا لأنه لا يملك ما يدفعه وميعاد دفع الجزية قد حل.. ترى ماذا سيفعل به الأمير المسلم؟ كان يعرف أن «بطرس» جاره لا يملك هو أيضًا ما يدفعه وأن الديون تراكمت عليه فقرر أن يذهب إليه ليسأله عن حل يمكن أن يكون قد توصل إليه.. كان «بطرس» تاجرا غنيا، لكن الروم وهم راحلون عن مصر دمروا كل ما كان يقع تحت أيديهم.. وكان مما دُمر دكان «بطرس» وسُلبت بضاعته وتكاثرت عليه الديون حتى صار من أفقر أهل القرية.. دخل «بنيامين» إلى بيت «بطرس» الذي كان في ما مضى أكثر بيوت القرية خيرا فصار أكثرها فاقة وحزنا.. قابله «بطرس» بابتسامة كعادته على الرغم من كل شيء وأجلسه وقال له:

- هيا لنأكل معا أولا قبل أي حديث.

كان «بنيامين» يعرف أنه بالكاد يملك قوت يومه وكان شبعا على كل حال فقال له:

- لقد فرغت لتوِّي من الأكل قبل أن آتي إليك.. أنا قد جئت إليك في أمر خطير.

فتغير وجه «بطرس» وابتلع ريقه وهو يسأله:

- وما يكون ذلك الأمر؟

فرد عليه بسؤال فيه الجواب:

- هل ستدفع الجزية؟

فظهرت علامات الغم على وجهه وهو يجيب:

- لو كان معي لكنت دفعت.. هل تعتقد أن يكون السيف على رقبتي ولا أدفع؟

فرد عليه:

- بالطبع لا.. لكننا لا نملك المال، فماذا نفعل؟

فقال له «بطرس»:

- ما كنا نفعله أيام الرومان، نحاول أن نقترض من غيرنا.

فسأله «بنيامين»:

- لكن هل تعتقد أن المسلمين سيعاملوننا كما كان يعاملنا الرومان؟

فهز كتفيه وهو يقول:

- لا أعلم.. هم حتى الآن يعاملوننا بالحسنى، لكني كلما تذكرت معاملة الرومان لنا أتعجب.. هل تتذكر القلائد الحديدية الثقيلة التي كنا نرتديها ليميزونا عنهم لاختلاف مذاهبنا حتى صارت عظامنا زرقاء وعُرفنا بالعظمة الزرقاء؟ هل تتذكر الجباية التي كنا ندفعها لهم ولا يقدمون لنا

أي خدمة أو حتى يحموا قوافلنا؟ عندما أتذكر مثل هذه الأشياء أقول لنفسي: المختلفون معنا في المذهب فعلوا بنا هذا كله، فماذا سيفعل المسلمون بنا؟

فرد عليه «بنيامين»:

- لكن المسلمين حتى الآن يحمونا ويشقون ترع المياه ولا يفرقون بين مسلم ومسيحي.. هل تعرف حكاية ابن الوالي «عمرو»؟

فرد عليه:

- نعم سمعتها.. لكن هل حدثت بالفعل؟

فأجاب «بنيامين»:

- لقد سألت أبانا وأكد لي صدق الحكاية.

فرفع «بطرس» حاجبيه لدهشته وقال:

- أرجو أن تكون قد حدثت بالفعل.. لكنني لا أعرف لماذا أشعر أن أبانا مرتاح لوجود المسلمين!

فابتسم «بنيامين» وقال:

- إنه الآن كلما أراد أي شيء ذهب مباشرة إلى الأمير ليدخل عليه في أي وقت فيلبي الأمير طلبه.. وبعد أن كان يصلي في الخفاء خشية أن يشعر به جنود الرومان صار يصلي في راحة وسكينة.

فرد عليه «بطرس»:

- لكن هذا أبونا.. لا يمكن أن يعاملوه بغير هذه الطريقة حتى لا يغضبوا عامة المسيحيين.

فرد عليه «بنيامين»:

- ولماذا لم يخش الرومان غضبنا؟

فأجاب «بطرس» بحدة:

- لقد كانوا جبارين.. عليهم لعنة الرب.

فقال له «بنيامين» وكأنه أخذ منه الاعتراف الذي كان يريده:

- إذًا تعترف أن المسلمين أفضل منهم؟

فأجاب «بطرس» بتلقائية:

- أنا لم أقل غير ذلك.. هم بالفعل أفضل منهم بكثير، لكننا لم نجربهم في موضوع الجزية هذا.

فقال له «بنيامين»:

- هل تعرف من يمكنه حل هذه المشكلة؟

فقال له «بطرس» بلهفة:

- من؟

فأجابه:

- أبونا.. نذهب إليه ونقول له أن يشفع لنا عند الأمير الذي يقوم بجمع الجزية ليأتي ويرى فقرنا.

فقال «بطرس» وهو يفكر:

- لكن هل يوافق أبونا على فعل هذا؟

فقال له «بنيامين»:

- وما الذي سيجعله يرفض؟

فقال «بطرس»:

- ربما يتحرج من الأمير.

فرد «بنيامين»:

- نحاول ولا أظنه يرفض.

فعاد ليسأله وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- وهل سيوافق الأمير؟

فقام «بنيامين» وقال له:

- يمكننا أن نعرف إذا ذهبنا إلى الكنيسة الآن.

* * *

على باب الأمير وقف ثلاثتهم: الكاهن.. «بنيامين».. «بطرس».. يطلبون الدخول.. كان الكاهن هو الذي يتحدث إلى الرجل الواقف بالباب فدخل الكاهن وبقي الرجلان بالخارج.

- أين الحرس؟

سأل «بطرس» بدهشة وهو ينظر حوله، فرد عليه «بنيامين»:

- هذا الأمير ليس له حراس.

فقال «بطرس»:

- ومن هذا الرجل الذي قابل أبانا؟

فرد عليه «بنيامين»:

- ربما أحد أعوان الأمير.

فقال له «بطرس»:

- لكن ملابسه لا تدل على أنه من علية القوم.

فقال «بنيامين»:

- هم لا يحكمون على الناس من ملابسهم، وعندما ترى الأمير لن تجده مختلفا عن ذلك الرجل.

فسأله بلهفة:

- وهل رأيته من قبل؟

فرد عليه وهو يبتسم:

- نعم، وأحب أن أراه ثانية.

قطع حديثهما الرجل الذي أدخل الكاهن بقوله:

- هل أنتما «بنيامين» و«بطرس»؟

كان يسألهما وهو يبتسم فردا عليه في نفَس واحد:

- نعم.

فقال لهما:

- الأمير في انتظاركما.

كان البيت عاديا كأي بيت في القرية يجلس فيه الرجل.. المفترض أنه الأمير.. على دكة خشبية.. وعلى مقربة منه يجلس الكاهن على دكة مماثلة.. بمجرد دخولهما أرادا أن ينحنيا له فقال لهما:

- أهلا بكما يا سادة.. لا تنحنيا لي أو لغيري.. تفضلا بالجلوس.

فجلسا مشدوهين لحاله معهما، ولم يستطيعا الكلام من المفاجأة والرهبة فقال لهما:

- لقد أخبرني الكاهن بحالكما وأنكما لا تملكان ما تدفعان به الجزية.

فقال «بنيامين» بسرعة:

- والله يشهد على صدقنا.

فقال الأمير:

- وأنت يا «بطرس».. لقد سمعت أنك كنت صاحب تجارة دمرها لك الرومان قبل رحيلهم.

فرد «بطرس» بصوت خفيت:

- الصدق ما سمعت يا سيدي الأمير.

فسكت الرجل قليلا ثم قال لهما:

- وماذا تريدان؟

فرد «بنيامين»:

- أن تعفينا بكرمك من الجزية.

فقال الأمير:

- بل بكرم الله.. وأنت يا «بطرس»؟

فرد «بطرس»:

- مثله يا سيدي.

فابتسم الأمير وقال:

- لكما ما أردتما، وفوق ذلك ما يعوضكما ويجعلكما تبنيان معا تجارة جديدة.. خذهما يا «عبد الله» وأجزل لهما في العطاء.

ففرح الرجلان وخرجا مع الرجل الذي أدخلهما فابتسم الكاهن وقال للأمير:

- ما أرق قلبك يا أمير!

فدمعت عيناه وقال:

- لقد كنا أشد قسوة من الرومان بل من الحجارة حتى أراد الله بنا خيرا فوفقنا لطاعته.

من أجل التشريفة

الطريق مزدحم.. السيارات لا تتحرك بالمرة.. شعر بالغبطة لأنه نزل قبل موعد الطائرة بساعات، وعلى الرغم من أنه لا يقطن بعيدا عن المطار فإن وقوف السيارات والازدحام يوحيان بأنه سوف يستنفد كل الوقت في الطريق.. «عبد المتجلي» - الأستاذ المتقاعد بكلية الإعلام - ظل طوال حياته يحلم بذلك اليوم الذي سيذهب فيه لأداء فريضة الحج.. قدَّم مرات كثيرة في حج القرعة لكن لم يظهر اسمه في أي مرة.. راتب الجامعة بالكاد يكفل له حياة شبه كريمة.. تزوج أبناؤه وماتت زوجته ولم يعد يأمل من الدنيا في غير الحج إلى بيت الله الحرام.. يسمونها حجة الإسلام.

كان ينتظر خروجه على المعاش حتى يأخذ المكافأة ويذهب ليحج بها.. لا يعلم لماذا أصبحت أسعار الحج مرتفعة هكذا.. حتى الحج صار فيه أغنياء وواسطة.. تذكر أحد الأساتذة عندما أخبره أنه ذاهب للحج فلما سأله عن الطريقة التي حصل بها على التأشيرة:

- سوف تذهب مع شركة سياحية أم حج القرعة؟

فضحك الأستاذ وقال له:

- لا هذا ولا ذاك.

فاندهش «عبد المتجلي» وقال:

- إذًا كيف حصلت عليها؟

كان «عبد المتجلي» يعلم أن هذا الأستاذ سوف يبخل بالمال.. ترى كيف حصل عليها؟!

- بالطبع أنت لا تعرف «شادي المنياوي»!

فرد عليه بدهشة:

- ومن «شادي» هذا.. مطرب جديد؟

فضحك زميله وقال له:

- لا، إنه ابن «سالم المنياوي» رئيس تحرير الـ.. عضو مجلس الشورى.. كان الولد يريد مني خدمة فعرفني إلى والده وهو الذي أحضر لي التأشيرة دون أن أدفع ولا مليم.

بالطبع لم يسأل «عبد المتجلي» عن طبيعة الخدمة التي كان يريدها الأستاذ «شادي» منه وقد عرف الآن لماذا أصبح زميله يكتب في هذه الجريدة.. الحج بالواسطة.. لا.. سوف أدفع كل مكافأتي خير لي من أن أحج بواسطة أحد.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالها سائق سيارة الأجرة الذي كان يستقلها «عبد المتجلي» فسأله:

- ماذا هناك؟

فأشار السائق بيديه إلى الطريق وقال:

- ألا ترى الطريق؟ لا يتحرك بالمرة.

فقال له:

- الصبر.. إن شاء الله سوف يتحرك.

فقال السائق:

- سوف يكون نهارا أسود إذا كان سيادته يمر الآن.. يمكن أن نظل هكذا طوال النهار.

فرد عليه «عبد المتجلي» ليطمئن نفسه أولا:

- ما زال هناك الكثير من الوقت على موعد الطائرة.

وعاد «عبد المتجلي» إلى ذكرياته.. تذكر عندما عرضوا عليه الانضمام إلى إحدى المؤسسات الإعلامية كخبير إعلامي براتب شهري كبير.. لكنه رفض لأن العرض كان فيه شبهة رشوة.. فقد كان «عبد المتجلي» أحد الأبواق المناهضة للممارسات المنافقة للحكومة في الإعلام الرسمي.. وعندما يئسوا منه قرروا أن يضموه إلى فريق النفاق، لكن بلا جدوى.

- بعد إذنك يا بيه.. من الذي سيمر الآن؟

كانت سيارة الأجرة التي يستقلها قريبة من أحد أمناء الشرطة الواقفين لحجز السيارات في هذا السجن المؤقت.. نظر إليه الأمين بلا مبالاة وقال له:

- خليك في حالك، ما لكش دعوة.

بعد إذنك ويا بيه.. وفي النهاية ذلك الرد! أحنق «عبد المتجلي» رد الأمين فنزل من السيارة وتوجه إليه مباشرة وقال له:

- متى ستفتح الإشارة يا بني؟

فنظر إليه بغضب وقال له بعنف:

- عُد إلى سيارتك يا حاج.. ما تجيبش لنفسك مشاكل.

فصرخ فيه «عبد المتجلي»:

- مشاكل لأني أسأل متى ستطلقون سراحنا.. حرام عليكم.. أنا عندي موعد طائرة سوف تفوتني.

انتبه أحد الضباط الذين بدأوا في الانتشار إليه وهو يصرخ فاتجه نحوه وقال له:

- ماذا هناك يا حاج؟

كان أسلوبه المهذب هو ما جعل «عبد المتجلي» يشعر بالهدوء فقال له:

- أنا مسافر أحج والطائرة ميعادها اقترب.

فسأله الضابط عن الميعاد، فلما أجابه ابتسم الضابط وقال له:

- ما زال هناك الكثير من الوقت.. إن شاء الله سوف يمر قريبا.

فسأله «عبد المتجلي»:

- من الذي سيمر؟

فابتسم الضابط بارتباك وقال له:

- اتفضل يا حاج اجلس في السيارة.. ومبروك مقدما.

فعاد مستسلما إلى سيارة الأجرة وقد لمح الأمين ينظر إليه بنظرة نارية وعندما عاد قال له السائق:

- هدي نفسك يا حاج دي عالم ولاد... ربنا ينتقم منهم.

فرد عليه:

- ربنا يستر.. لكن الضابط شكله محترم.

فضحك السائق وقال له:

- محترم فقط! ربنا بيحبك إنك وقعت في بني آدم.. أتذكر ذات مرة كنا في عز الصيف ووقفنا بالساعات في انتظار مرور أحد السادة الأفاضل.. نزل أحد أصحاب السيارات ورفع صوته بالسباب.. فقد أعصابه أو عقله من الجلوس في السيارة لساعات، خاصة أن سيارته ليس بها مكيف هواء.. انطلق إليه كائن أسود كالسهم أوقعه أرضا وكبله ثم اقتاده إلى إحدى سيارات الشرطة والرجل يستجديه بلا طائل.

ابتلع «عبد المتجلي» ريقه بصعوبة وقال لنفسه إنه كان قاب قوسين من مصير ذلك الرجل، ولا يدري ما الذي ذكّره بطابور الخبز، الوقوف بالساعات.. ربما يكون هذا هو القاسم المشترك بين هذه الإشارة وطابور الخبز، غير أن طابور الخبز له هدف ومنه غاية في النهاية.. تذكر خبز والدته يرحمها الله.. كلما تذكرها شعر وكأنه لا يزال طفلا صغيرا.. تجلس أمام الفرن في منزلهم بالقرية وتخرج الخبز الطازج إلى أفواههم مباشرة.. الآن حتى أهل القرى صاروا يشترون الخبز من الأفران.. كانت والدته تتمنى أن تحج، لكنها لم تخرج من قريتها قط.. بالكاد تعلّم الأبناء وعاشت على الكفاف وماتت بمجموعة من أمراض الكلى والكبد.. قريته مليئة بمرضى الكبد والكلى.. الماء ملوث.. وما الشيء غير الملوث في تلك القرية أو في غيرها أو في المدن؟ إذا كان الهواء نفسه ملوثا.

- هل مر الآن؟

سأل «عبد المتجلي» السائق عندما لمح مجموعة من السيارات السوداء تمر بسرعة فقال له:

- لا.. هذه السيارات لتأمين الطريق.

فقال «عبد المتجلي» بسخرية:

- وهل يوجد أحد في الطريق؟!

ثم نظر إلى ساعته في قلق وقال:

- لقد نزلت قبل الموعد بساعات.. ماذا أفعل أكثر من ذلك؟

فقال السائق:

- ربما يجب أن تبيت في المطار أو تعرف جدول أعمال سيادته.. أفضل شيء يتم إلغاء الطرق التي يسير فيها وتصبح له وحده.

هل كان الملك يفعل ذلك؟ هل قامت ثورة يوليو من أجل ذلك؟ هل عبرنا في أكتوبر من أجل ذلك؟

نزل «عبد المتجلي» مرة أخرى، وفي هذه المرة ذهب إلى الضابط مباشرة وقال له:

- بعد إذنك يا بني الطائرة ستفوتني.

نظر الضابط إلى ساعة يده وقال له:

- قرب يمر.. إن شاء الله تلحق بها.

فدمعت عيناه وقال له:

- أنا طوال عمري وأملي أن أذهب للحج.. هذه آخر فرصة عندي دفعت فيها كل ما أملك.

فرد عليه الضابط برفق:

- إن شاء الله تسافر.

فقال له:

- أليس من الممكن أن أمر أنا فقط؟

فابتسم في مرارة وقال:

- السيارة التي ستمر سيتم ضربها بالنار.

فعاد إلى السيارة دامع العينين مستسلما لقضاء الله ولسان حاله يقول: حسبي الله ونعم الوكيل.. ظل الحال على ما هو عليه، وكلما مر الوقت تجمعت المزيد من العبرات في عينيه.. وفجأة فتح الطريق دون أن يمر أحد.. في أثناء مرور السيارة بالقرب من أحد الضباط سمع «عبد المتجلي» من يقول إن الزيارة قد ألغيت.. وانطلق السائق إلى المطار.. وما إن وصل حتى نزل «عبد المتجلي» وانطلق إلى الداخل والسائق يقول له:

- إن شاء الله هتلحق.

* * *

- ماذا أفعل الآن يا شيخ؟

قالها «عبد المتجلي» للشيخ الذي حكى له ما حدث بعد أن فاتته الطائرة وضاع عليه المبلغ الذي دفعه، فقال له الشيخ:

- المهم النية والعزم، وقد فعلت ما عليك والله يتقبل وإن لم تستطع الذهاب للحج مرة أخرى فليس عليك وزر إن شاء الله.

فقال له:

- لكني يا شيخ كان نفسي أشوف بيت ربنا ولو مرة واحدة قبل ما أموت.

وأجهش بالبكاء.. فحاول الشيخ أن يطيب خاطره، لكن بلا جدوى.

تأشيرة الحياة

مستشفى التأمين الصحي حيث المرضى ملقون هنا وهناك يجمع بينهم المرض.. الفقر.. وكثيرا اليأس.. بالطبع المشهد لا يساعد على الشفاء ولا يجعلهم يأملونه.

يدخل «صلاح» إلى المستشفى آملا أن يجد فيه ما يخلصه من آلامه أو يقضي على آماله.. سنوات من العناء مع أمراض الكبد.. يستريح يوما.. ويتمزق أياما.. ذلك الكائن الصغير الذي اختار كبده ليكون بيته الجديد يجعل ذلك البيت يتآكل يوما بعد يوم.. الفيروس سي.. لقد استطاعت مصر أن تحقق المراكز الأولى في مرضى السرطان والفشل الكلوي وسي.. سوف نقوم باحتكاره.. وأحد أبناء ذلك الوطن الأبرار الذين لهم الفضل في ذلك المركز المتقدم بعد الحكومات الرائعة كان «صلاح» الموظف بالشهر العقاري الذي - لأنه لا يقبل الرشوة - لا يجد أمامه إلا مستشفى التأمين للعلاج.. يقولون هناك علاج جديد.. مجموعة من الحقن.. معه كل التحاليل والفحوصات التي قام بعملها.. لا يمكن أن يأخذ تلك الحقن إلا إذا وافق الدكتور «مرعي».. تأشيرة الدكتور «مرعي» هي بابه إلى

الشفاء.. أخرج «صلاح» بطاقة التأمين الصحي الخاصة به وأعطاها للممرضة وجلس في استراحة المرضى ينتظر أن تنادي على اسمه وتدخله للكاهن الأكبر «مرعي».

وجوه مرضى الكبد تتشابه.. البشرة والعيون الصفراء والوجه الممصوص.. انتظر طويلا حتى نادت عليه الممرضة فدخل إلى «مرعي».. كان شديد البدانة يرتدي عوينات سميكة.. شعر رأسه الذي يشبه اللوف أبيض تماما.. كان يدخن في الغرفة المغلقة المفترض أن تكون للكشف على المرضى.. لم ينظر إليه عندما دخل لأنه كان منشغلا بالبحث عن رسالة تصلح للتهنئة بالزواج على هاتفه النقال فقال:

- صلاح عبد الكريم؟

فرد عليه «صلاح»:

- أيوه يا دكتور.

فنظر إليه وكأنه يعاينه، ثم قلّب في الأوراق على المكتب أمامه حتى أخرج منها التحاليل الخاصة به وقال له:

- أوامرك؟

فرد عليه بدهشة:

- الأمر لله.. أنا عندي...

فأشار إليه «مرعي» وهو يقول له:

- أنا عارف اللي عندك.. هو أنا ما بعرفش أقرا؟ إيه المطلوب منا دلوقتي؟

فرد عليه «صلاح» وقد بدأ يحتد:

- المفروض إني جاي أتعالج.

فرد عليه:

- انت بتتعالج من قد إيه؟

فقال له «صلاح»:

- سنوات طويلة.

فسأله:

- خفيت؟

فرد عليه بحزن:

- لأ.

فقال له «مرعي» وهو يبتسم:

- طيب هعمل لك أنا إيه دلوقتي؟ أهو هكتبلك على أي حاجة عشان الكبد يمكن نطوّل شوية في عمره.

فقال له «صلاح»:

- أنا سمعت عن الحقن الجديدة اللي...

فقاطعه «مرعي»:

- حقن؟ إبينيفرن؟ لأ الحقن دي عشان الحالات اللي ممكن تجيب نتيجة، دي مكلفة جدا وبعدين مش أي حد ينفع ياخدها.

فهمّ «صلاح» بالرد عليه، لكنه سحب ورقة من أمامه وأشار إليه بالصمت وقال له:

- على العموم اعمل التحاليل دي وتعالى كمان أسبوع نشوف ينفع تاخد الحقن ولا لأ.

فقال له «صلاح»:

- يا دكتور أنا عامل تحاليل الدنيا والآخرة، إيه لزمة تحاليل تاني؟

فقال له «مرعي»:

- هو فيه في الآخرة تحاليل؟

وضحك حتى دمعت عيناه ثم استطرد:

- لازم التحاليل تبقى طازة.. خلاص بقى يا عم «صلاح» تعالى الأسبوع الجاي وربنا يسهل.

فقام «صلاح» مستسلما وخرج.. كان كلامه مع الطبيب قد زاد همه وأشعره بمزيج من الهم واليأس والعجز.. جلس في الاستراحة لا يدري ماذا يفعل حتى أحس بظل قريب منه فرفع رأسه ليجد الممرضة أمامه مباشرة.

- قوم تعالى.

فنظر حوله في قلق.. نعم إنها تتحدث إليه..

- يا أستاذ «صلاح» تعالى بسرعة.

إذًا فهي تقصدني بالفعل.. ماذا تريد يا ترى؟! أخذته في ركن قصي وقالت له:

- طبعا طلب منك تحاليل وما كتبلكش على حاجة؟

إما أنها عبقرية وإما أنها عادة الطبيب.. فرد عليها:

- أيوه ومش عارف هعمل إيه.. لسه هعمل تحاليل و...

فأشارت إليه بما معناه «انت ما صدقت ولا إيه؟» وقالت له:

- خذ.. هذا عنوان العيادة.. إذا ذهبت إليه بالليل في العيادة هيتوصى بيك عن لما تيجي هنا.

فأخذ «صلاح» الكارت بدهشة وهو يسمعها تقول:

- أنا عملت كده بس عشان انت شكلك طيب وغلبان.

فدمعت عيناه وقد رآها ملكا بجناحين وقال لها:

- ربنا يكرمك.. يعني كل ده عشان أكشف عنده بره؟

* * *

كانت العيادة في حي شعبي ببيت متهالك.. سوف أصعد لأجدها فارغة.. وبالطبع ثمن الكشف سوف يكون منخفضا.. هكذا قال «صلاح» لنفسه وهو يصعد السلم المتآكل، لكنه عندما وصل وجدها مكتظة

بالمرضى.. هذه الوجوه ليست غريبة.. لقد رآها في مستشفى التأمين في الصباح.. مكتب الممرضة فارغ، فسأل أقرب الجالسين:

- هو مفيش حد عشان عايز أقطع كشف؟

فرد عليه بملل:

- جوه عند الدكتور وطالعة.

يبدو أن هناك من سأله هذا السؤال مرارا.. عندما خرجت الممرضة كانت هي الممرضة نفسها التي أعطته الكارت في الصباح.. (ده انتوا عصابة بقى يا حرامية يا صيّع).

- أفندم؟

سألته الممرضة وكأنها لا تعرفه فنظر إليها بما يعني «إنتي هتستعبطي؟».

- أنا «صلاح».

فردت عليه بوجه جامد:

- حضرتك حاجز؟

فعلم أنها سوف تدعي الإنكار حتى النهاية فقال لها:

- لأ.. وعايز أحجز.

- عادي ولا مستعجل؟

- بكام وبكام؟

- مية وخمسين.. ومتين.

- نعم؟

- عادي ولا مستعجل؟

- عادي.

جلس بعد أن أعطاها المال.. كل هؤلاء رآهم في الصباح.. ابتسم عندما أحس أن التأمين نُقل كله هنا بالتمريض والمرضى.. كل هؤلاء يريدون تأشيرة الحياة من «مرعي».. ويمضي الوقت بطيئا.. بطيئا.. بطيئا..

- اتفضل يا أستاذ «صلاح».

هل نام وهو جالس؟ قام من فوره ودخل إلى «مرعي» الذي كان يجلس على مكتب نظيف ينظر إلى تحاليله في اهتمام وقال له:

- اتفضل على السرير.

فنام «صلاح» وظل «مرعي» يكشف عليه.. وبعد أن انتهى من الكشف جلس معه على المكتب وظل يسأله بالتفصيل عن العقاقير التي كان يأخذها..

- تيجي لي بكرة في التأمين أكتب لك على حقن جديدة كويسة قوى لحالتك.

- طيب مش هحتاج أعمل تحاليل تاني؟

- لأ.. التحاليل دي كفاية وانت حالتك كويسة، الحقن هتجيب معاها نتيجة.. مع السلامة.

* * *

نفس الأشخاص.. نفس التحاليل.. نفس المريض.. نفس الطبيب.. نفس المكان.. نفس الدواء، لكن زيارة الأمس كان لها مفعول السحر.. لقد كان التقرير أنه بعد الكشف عليه فإن حالته تستحق العلاج بالإبينيفرن، وفوق كل ذلك نوصي بسرعة البدء فيه.. لن يذهب إليه «صلاح» في العيادة مرة أخرى.. فيرى فجأة أن الحقن لم تعد تجدي نفعا معه.. زيارة أخرى للعيادة.. فتعود الحقن لتسري في عروقه.. وهكذا.. يجب أن يلقي نظرة على العيادة كل فترة.

عشرة جنيهات

حديقة الحيوان.. حيث يذهب البائسون لرؤية بقايا حيوانات بائسة.. وقفت أم «مي» أمام نافذة التذاكر تنظر لما بقي لديها من مال.. هي تجيد الحساب.. علمتها الأيام العد بعد ترك زوجها لها.. لقد مر عامان على هذا الأمر.

* * *

كانت «مي» قد وُلدت من دون فتحة بول.. والدها لا يحب النكد؛ لذلك لم يهتم للأمر.. أمها هي من دارت بها على العيادات الخاصة والمشافي بلا فائدة.. أقصى ما توصل إليه الطب عمل فتحة في بطن الطفلة.. لم تكن «مي» هي الكبرى بل سبقها للحياة «سالم».. لا أدري لماذا لا أتخيل طفلا اسمه «سالم».. «سالم» هذا يجب أن يكون عمدة القرية.. سبب تسمية الطفل بهذا الاسم أن جده لوالده له هذا الاسم.. كان «سالم» صحيحا بريئا.. جاءت من بعده «أم محمد».. لو كان من الممكن أن يكون هناك طفل اسمه «سالم» فهل من الممكن أن يكون هناك طفلة اسمها «أم محمد»؟ لكنه اسم والدة الأب.. ويا له من أب.. في المشفى

قال لزوجته أم «مي» التي على الرغم من وجود «سالم» و«أم محمد» لُقبت بأم «مي».. ربما لمرضها:

- اتركيها بالمشفى سيأخذها أي أحد.. هي لا تزال صغيرة.. لن تتعرف علينا.

نظرت إليه زوجته في دهشة.. ذهول.. اشمئزاز.. أي وصف غير مهذب ويدعو للتقيؤ.. لم يكن زوجها فقيرا.. كان في يده صنعة.. لكنه ببساطة لم يكن يحب النكد.. صرخت أم «مي».. كان صراخها آخر ما سمعه زوجها منها وعنها وعن أولاده.. آخر ما وصلها منه ورقة الطلاق.. فيها رائحته النتنة.

* * *

كان معها عشرة جنيهات الآن أصبحت تسعة بعد أن أنفقت جنيها في الميكروباص.. كانت للتوفير تجلس على كرسي واحد هي والأطفال الثلاثة.. كانت تريد أن تروّح عنهم.. لم تجد أرخص من الحديقة.. سوف تقطع تذكرة واحدة للدخول.

- ثلاثة جنيهات.

صدمتها الموظفة بالثمن الجديد للتذكرة.. لكنها أفاقت وأعطتها المال.. الآن لم يبق معها غير ستة جنيهات.. على باب الحديقة استعطفت الحارس الذي كان في بؤس قريب منها فأدخلها.

جرى «سالم» ومن خلفه الحاجّة الصغيرة «أم محمد»، أما «مي» فكانت تمشي على مهل.. كانت لا تستطيع الجري.. حتى لو أرادت أمها تمنعها خوفا عليها.. لن تحاول أمها أن تخلع لها «الحفاض» كما تفعل الأمهات مع من هن في مثل سنها.. ذلك للفتحة في بطنها.. هل ستتزوج في يوم من الأيام؟!

أمام بيت الزواحف أصرت «أم محمد» على الدخول.. كانت الأم تتمزق عندما تشعر أنها كسرت بقلب أحد الأطفال.. حاول «سالم» أن يثنيها لأنه على الرغم من حداثة سنه كان يتفهم حالتهم المادية.. تذكرت أم «مي» العيد الماضي.

* * *

ذهب أولاد الحلال إلى الجد حتى يحثوه على الذهاب لرؤية أحفاده بعد أن يئسوا من الأب.. كان الجد أكثر طيبة من الأب وألين.. فالأب كادوا يقبلون قدميه حتى يذهب لرؤية الأولاد.. أما الجد فلم يستغرق الأمر سوى أسبوع واحد فقط من الجدال حتى وافق أن يذهب إليهم في العيد.. يا له من رجل طيب!

- وحسبي الله ونعم الوكيل.. دي عيلة بنت ستين...

كان هذا التعليق من أحد المجادلين للجد.

تفضل الجد وكرم ونزل من علياته ليعطف على تلك المجموعة من الصراصير في العيد الكبير.. والعيد فرحة كما يعلم الجميع.. قابلته أم «مي» في غرفتها تحت السلم في بيت خالتها.. لن تنوم على الخالة وأبنائها بعد ما فعله الوالد والجد.. طفح الجد كوبا من الشاي - بالسم إن شاء الله - ثم...

- عايزين حاجة؟ سلام عليكم.

صحيح ذلك الأب من ذاك الجد.

* * *

اشترت أم «مي» التذكرة وقالت لـ«سالم»:

- عينك على «أم محمد».. سوف أنتظركما بالخارج.

هكذا أنفقت جنيها إضافيا.. الأمر لا يحتاج إلى مدرس حساب.. معها خمسة جنيهات.. أمضت الوقت مع «مي» أمام باب بيت الزواحف.. كانت جالسة على مقعد حجري والبنت على حجرها.. نزلت البنت فتركتها لتتمشى قليلا وراقبتها بعينيها.. كانت البنت جوعانة لذلك بتلقائية اتجهت نحو تلك السيدة السمينة التي افترشت الأرض وبدأت في رص مجموعة متنوعة من الشطائر.. لا تبيعها مع أن من يرى كم الشطائر سوف يعتقد ذلك.. بل لتأكلها هي والأفيال الصغيرة الذين معها وينتحلون شخصية أطفال صغار.

- خدي يا أمورة.

جرت أم «مي» علي ابنتها وقالت للسيدة:

- والله معايا أكل.. بس مستنية اخواتها لما يطلعوا من بيت الزواحف.. أصل أنا و«مي» بنخاف منها.

فقالت لها السيدة:

- والله لتاخدي انتي وهي.. لازم تدوقي.

تذكرت أم «مي» أولاد خالتها.. الذين لم يكتفوا بعدم إرسال الطعام لها.. بل كانوا يجعلونها تطبخ لهم ما لا تأكله.. تنظف الشقة.. تقوم بعمل أي شيء.. المهم تعمل بثمن القعدة.

على أساس أنهم تعطفوا عليها ومنحوها الغرفة الخمس نجوم تحت سلم بيتهم المتهالك.

أخذت الشطيرة التي أخذتها لنفسها ووضعتها بين طيات ملابسها لتحافظ عليها حتى يخرج «سالم» و«أم محمد» من عند الزواحف.. لقد تأخرا.. ماذا ستفعل؟

- عيالي جوه.. ربنا يستر.. أدخل أشوفهم.. والله مش هبص على أي زاحف من الزواحف.

نظر إليها الرجل ثم قال:

- خشي يا ستي ولو عايزة تبصي بصي.. يعني هينقصوا ديل؟!

عندما دخلت كان «سالم» منهمكا في شرح بعض الأشياء لأخته باهتمام:

- ده بقى تمساح.

هكذا كان مكتوبا على الزجاج من الخارج.. فضحكت الأم وقالت له:

- تمساح إيه يا أهبل؟ ده تعبان.

فقال لها الولد:

- يعني الحكومة تكتب عليه تمساح ليه؟ من باب التمويه؟! يعني احنا هنفهم أكتر من الحكومة؟

ضحكت الأم وقالت له:

- هيا كل حتى نعود للبيت.

* * *

بعد رحلة العودة صار معها أربعة جنيهات.. يمكنها أن تشتري بها الطعام للعشاء.. ماذا تشتري؟ قطع تفكيرها زيارة جارة لها في حالة مشابهة لحالتها المادية.

- كيف حالك يا أم «عبير»؟

- بخير.. وأنت يا أم «مي»؟

- الحمد لله.. كيف حال «عبير»؟ ما أخبار الجهاز؟

- أولاد الحلال ربنا يكرمهم.. لقد اشترى لها اليوم أحدهم الأطباق.

- ربنا يكرمه.. ما لك؟ متعبة؟

- لا.. لكني لم أضع لقمة في فمي منذ الصباح.

- وأنا أيضا.. هيا لنأكل معا.

نظرت إليها جارتها بخجل وقالت:

- ليس معي سوى هذين.

أخرجت جنيهين معدنيين.. فضحكت أم «مي» وقالت:

- الآن معنا ستة جنيهات.. ماذا نأكل بها؟

فردت عليها السيدة:

- نشتري «باذنجان» ونقليه.

فسألتها أم «مي» بدهشة:

- عندك زيت؟

فأجابتها السيدة:

- سيدة جارتنا طيبة أرسلت لي نصف زجاجة.

فقالت لها أم «مي»:

- يبدو أنها متيسرة الحال.. ربنا يزيدها.. والخبز؟

- سوف أرسل «عبير» للفرن البلدي بجنيه عيش يكفينا.

- سوف تظل بقية اليوم هناك.. فليس هناك سوى فرن واحد فقط يتأخر حتى الآن.

- لا يهم.. المهم أن تستطيع العودة بالخبز.. هل عندك ملح؟

- لا.

- نشتري ملح.. مش هيخسر.. بس المهم ما ناخدش على الأكلة الجامدة دي كل يوم.

نهاية الخدمة

خرج «عبد المقصود» من المصلحة التي قضى بها معظم سنوات عمره يحمل في جيبه مبلغًا من المال لم يتحصل عليه من قبلُ في أي فترة من عمره الذي أفناه في العمل.. يحمل أيضًا في قلبه القلق والهم.. لقد فقد الشيء الوحيد الذي كان يسلّيه في الحياة وأصبح على المعاش.. سوف يفتقد عادته اليومية، وهي الصراخ في الموظفين، التي كان ينفث من خلالها الكثير من غضبه.. عندما كانت زوجته على قيد الحياة كان ينفث غضبه فيها، لكنها خدعته وماتت.. أو هكذا كان يعتبرها.. كان يقول لنفسه دائمًا عندما يتذكرها:

- عادت من الحج وماتت على الفور.. تطهّرت من ذنوبها وماتت.. تركتني أتكلم مع الجدران.

كان يعتبرها ذكية لأنها ماتت بعد عودتها من الحج مباشرة.. كأنها ماتت برغبتها.. الأبناء مشغولون.. حتى السؤال عنه في الهاتف لا يواظبون عليه.. ليس له أصدقاء؛ فقد كان المدير.. المدير هناك من يداهنه أو

يتودد إليه، لكن ليس هناك من يطلب وده وصداقته من غير منفعة تعود عليه.

كانت هناك تلك السوق التجارية بجانب المصلحة الحكومية التي كان «عبد المقصود» مديرها حتى الأمس.. دخل تلك السوق لأول مرة في حياته.. كان يرى أن تلك الأسواق طريقة خبيثة لدفع البلهاء لشراء ما لا يحتاجون.. لكنه هذه المرة أراد أن يرى بنفسه شكل تلك الأسواق ويشتري منها أي شيء ولو من باب الترويح عن نفسه.

دخل ليجد كل واحد يدفع أمامه عربة محملة ببضائع تكفيه هو لعام كامل.. كادت تصيبه أزمة قلبية.. ما كل هذا الإسراف؟! لكنه تحامل على نفسه وأخذ عربة مثلهم ليدفعها أمامه في أروقة السوق.. البضائع على الجانبين تناديه.. قاومها، لكن النداء يتعالى.. هو الذي أمضى حياته يشتري ما يحتاجه يومًا بيوم، يقع الآن تحت تأثير نداء السوق.. لكنه كان يعزي نفسه ويقول لها:

- مرة من نفسي.

عندما وقف للحساب عرف أنه تمادى قليلًا.. لقد أنفق ما يقرب من نصف مرتبه.. لكن لا يهم؛ لقد أخذ المكافأة للتو.

خرج «عبد المقصود» ليوقف سيارة أجرة.. سائق المصلحة كان يريد أن يوصله للبيت، لكنه أصر على أن علاقته بالمصلحة قد انتهت ولا يحق له استخدام سيارتها.

- المعادي؟

- أين؟

- عند محطة مترو الثكنات.

- منطقة مقطوعة.. لكن لا يهم، تفضل.

- هل تفتح حقيبة السيارة؟

- لا يهم، ضعها على الأريكة.

جلس «عبد المقصود» بجانب السائق وبدأ في الشكاية من الدنيا وجحود الأبناء.. حكاية يسمعها السائق كل يوم حتى أصابته اللامبالاة من كثرة ما سمع.. لكنه في كل مرة يتصنّع الاهتمام والإنصات.

- بعد هذه الأعوام كلها.. والعمل المستمر.. لم أتأخر يومًا عن العمل.. هذه هي النهاية.

- ما الذي حدث يا حاج؟ هل طردوك؟

نظر «عبد المقصود» إلى السائق شزرًا وقال له:

- لقد خرجت على المعاش.

فقال له السائق وهو يحاول أن يرسم على وجهه علامات الأسى:

- لا تحزن يا حاج.. سُنّة الحياة.. وأنت الخير والبركة.

- ماذا سأفعل الآن؟ ماتت زوجتي وأنا أعيش بمفردي بعد زواج أبنائي.. أبنائي الذين أفنيت عمري عليهم.. لا يسألون عني إلا إذا سألت عنهم.. الحجّة الجاهزة أنهم مشغولون.. لم أعد أريد رؤيتهم.. لا أريد سوى رؤية أحفادي.

أوشك «عبد المقصود» على البكاء فربت السائق على كتفه وقد تأثر بالفعل هذه المرة لبكاء الرجل وقال له:

- صلِّ على النبي يا حاج.. كله عند ربنا.

فرد عليه «عبد المقصود»:

- الحمد لله على كل حال.. لكن ماذا سأفعل الآن؟ لقد صرت بمفردي في هذه الحياة.. كان العمل هو سلواي الوحيدة.. من أجله لم يكُن لي صداقات.. الآن ذهب العمل وذهب العمر.. كل ما أخذت هذه المكافأة.. ماذا سأفعل بها؟ سوف ألقي بها في البنك.

- حمدًا لله على السلامة.. لقد وصلنا يا حاج.

- كم أجرتك يا بني؟

- أنا لا أرى حارسًا للعقار.

- لا يوجد عندنا.. رحل منذ أيام.

- سوف أحمل لك حقائبك ثم آخذ الحساب.. لن تستطيع الصعود بمفردك.

- ربنا يكرمك يا بني.

فتح «عبد المقصود» شقته ودخل وخلفه السائق يحمل الحقائب.. وضع المفاتيح على الطاولة والتفت ليحاسب السائق.. لكن الدنيا أظلمت.. كانت ضربة قوية قد أفقدته الوعي.

* * *

تُوفي «عبد المقصود» نتيجة النزيف الذي أحدثته ضربة السائق.. عاش بمفرده ومات لأنه كان بمفرده، ولأنه قال للسائق إنه بمفرده.. كان في حيرة لأنه لا يعرف ماذا سيفعل بعد المعاش.. وقد وجد السائق الحل.. وأنهى خدمته نهائيًا.

الكشاف

كانت سعادته لا توصف وهو يحمل الكشاف بين يديه كأنه ولده.. هدية السماء التي هبطت عليه.. ظل أشهُرًا يوفِّر من راتبه الشهري لشراء ذلك الكشاف.. أصر أن يشتري أفضل الأنواع.. لم تعُد هناك صناعة يابانية لهذه المنتجات مثل الأيام الخوالي.. عندما طلب نصيحة البائع قال له:

- هذا الكشاف ماليزي.. ليس كالأنواع الصينية الرديئة.

- لا أريده أن يعمل ليومين ثم يتعطل.

- لا تخَف.. أضمنه برقبتي.

أخذ الكشاف بضمان رقبة البائع الذي لو عاد إليه بعد دقائق سيدَّعي أنه لا يعرفه ولم يرَ ذلك الكشاف من قبلُ.. حمل الحاج «فتحي» منقذه بين يديه.. سينقذه ذلك الكشاف من ساعات الظلام المخيفة بالنسبة إليه، التي يقضيها كلما انقطعت الكهرباء.. وكثيرًا ما تنقطع.

منذ أن كان صغيرًا وهو يخشى الظلام.. كان الجلوس بمفرده في الظلام هو الوسيلة المحببة إلى قلب والده لعقابه.. هو الآن جد.. يعيش مع

زوجته العجوز التي تسخر منه كلما انقطعت الكهرباء.. تقول له بعد أن تصنع أصواتًا مخيفة من باب السخرية:

- لقد أصبحت جدًا وما زلت تخاف من الظلام!

- على فكرة.. أنت لا تحتاجين إلى تغيير صوتك حتى تخيفيني.. ما شاء الله صوتك مرعب من غير إضافات.

سوف يعود إليها بالكشاف.. سوف يضعه في أفضل مكان بالشقة.. سوف يغيظها بكشافه الجديد.

عادت به الذكريات لوالده.. لا يزال يخشاه على الرغم من مرور السنوات.. على الرغم من وفاته منذ سنوات بعيدة.. لا يتذكر منه سوى الغرفة المظلمة.. هل كان يحبه؟ لا يعرف، ولم يخطر ذلك السؤال على باله طوال حياته معه.

وصل الحاج «فتحي» إلى الحارة التي من مظاهرها بحيرة مياه الصرف الراكدة، التي يعتقد المتابع لها أنها من التضاريس الطبيعية للحارة؛ لوجودها الدائم.

كان المقهى في البناية المتهالكة التي يقطن بها ممتلئًا عن آخره.. الليلة مباراة بين قطبي الكرة المصرية، وهذا عند الكثيرين أهم من الحرب على «إسرائيل».

سوف يقفز على الحجارة الموضوعة أمام البناية.. سوف يصعد بالكشاف ليفاجئ به زوجته.. سوف يسخر منها منذ الآن.. لن يسمح لأحد أن يسخر منه.. سوف...

انقطعت الكهرباء.. كانت الكرة على وشك دخول المرمى.. صوت اللعن والسباب يتعالى.. كرسي غاضب يطير من داخل المقهى.. منذ متى والكراسي تطير؟

بالطبع لم يجد الكرسي غير جسد عم «فتحي» ليرتطم به في أثناء قيامه بإحدى الحركات البهلوانية التي يقوم بها كل يوم لدخول العقار.

أخذه الكرسي إلى الماء الراكد.. سمع مَن في المقهى صوت الماء فعرفوا أن هناك من وقع فيه.. لو كان هذا الحادث قد حدث في أثناء المباراة لما تحرّك أحد.. لكن الكهرباء انقطعت، فلا ضير من فعل الخير.

- أين الكشاف؟ لقد وقع في الماء.. يا ليلة سوداء.

* * *

عندما ذهب عم «فتحي» بالكشاف لراديو «مصيلحي»، وهو محل لإصلاح الأجهزة الكهربائية، كان «مصيلحي» بنفسه هو من فتح الكشاف.. هز رأسه في يأس وقال لـ«فتحي»:

- ربنا يعوض عليك يا عم «فتحي».

- لاااااااا.

نظر «مصيلحي» حوله ووضع يده على فم «فتحي» وهو يقول:

- اهدأ يا عم «فتحي».. على العموم، هذه طبيعة الصيني.

- صيني؟ لكنه مكتوب عليه ماليزيا.

- من الخارج فقط.. المكونات كلها من الداخل صيني.. فيمَ تفكر يا عم «فتحي»؟

- الحمد لله.. «دولت» لا تعرف بأمر الكشاف.. لقد تركته بالمقهى حتى جف وعدت به إليك دون أن تعلم.. سوف يأتي اليوم الذي أمتلك فيه الكشاف وأغيظ «دولت».

عفريت

موجات التشنج هذه جديدة على جدته.. لم تكن تصيبها من قبل..

قال «حسن» لوالدته:

- يجب أن نعرضها على الطبيب.

لترد عليه والدته بثقة:

- لماذا الطبيب؟ أنا أعرف السبب.. لقد رأيت الماء المرشوش أمام باب الشقة.. لا يوجد غير «أم كريم» جارتنا.. بالتأكيد قامت بعملِ عملٍ لها.. هذه السيدة سيئة السمعة ولها في السحر.. اللهم احفظنا.

ينظر «حسن» إلى والده الذي يشاهد التلفاز كأن الأمر لا يعنيه؛ فالمريضة حماته وهو في داخله يرى ما يحدث لها جزاءً وفاقًا لما فعلته به طوال سنوات صحتها.. يقول «حسن» لوالده:

- قل شيئًا لأمي.

فيرد عليه الأب جادًا وهو يصب كل تركيزه على الشاشة:

- شيئًا لأمي.

كان يشاهد مسابقة لاختيار مطرب شاب من بين مجموعة من أصوات الغربان يفاضل بينها المحكمون بدقة بالغة.. كأنها عملية جراحية.. ارتفع ضغط الدم لدى «حسن» وصرخ على والده:

- يا أبي.

فانتفض الأب كأنه لم يسمعه غير الآن والتفت إليه وهو يسأله:

- ماذا تريد؟

فأجابه «حسن»:

- أظن أن جدتي مصابة بالصرع.. يجب أن تذهب إلى الطبيب بدلًا من الحديث عن الأعمال وهذا الكلام الفارغ.

عاد الأب ينظر إلى التلفاز وهو يقول:

- السحر مذكور في القرآن.

ليرد «حسن» معترضًا:

- لكن القرآن أمرنا بالتداوي و...

فقاطعته والدته:

- سوف نذهب إلى «أم بيومي» وسوف تأتي معي.

ليقول «حسن» معترضًا:

- لماذا لا يذهب أبي معك؟

فيرمقه والده بنظرة نارية ويخلع «الشبشب» ليضعه في وضع القذف في وجه «حسن» وهو يقول:

- لقد عدت لتوّي من العمل وأنا متعب.. انزل أنت مع والدتك.

ثم تمتم بصوت منخفض:

- اليوم سوف نعرف من سيكسب المسابقة.

* * *

أي مكان يُطلب فيه الشفاء تجده مزدحمًا: المستشفيات العامة والخاصة.. عيادات الأطباء.. مركز «أم بيومي» لفك الأعمال وإخراج الجن وضربهم بالحذاء إذا أردت.. معظم المنتظرين بالخارج يمكن تشخيص حالاتهم بسهولة من قِبَل طبيب حديث التخرج.. ساعات من الانتظار.. «حسن» يتململ لأنه يعرف أن كل هذا بلا جدوى.. والدته تجلس في حماسة وتتحدث مع كل من حولها.. أحيانًا يشفق عليها.. حياتها تحركها الأعمال السّفلية والجن الذين يتزوجون من الإناث.. انقرضت الجنيات حتى يأتوا للزواج من الفتيات! سوف يكون حلًا لمشكلة العنوسة على كل حال.

ابتسم «حسن» لتلك الخاطرة.. لكنه ما لبث أن عبس من جديد عندما عرف أن جدته عليها الدور للدخول للكاهنة العظمى.. قاهرة الجن والعفاريت.. القادرة على فك أي عمل.. ويُفتح الستار لتظهر «أم

بيومي».. مصطنعةً إلى أقصى حد.. البخور.. فراء الخراف.. السبح.. الضوء الخافت.. هذه السيدة يمكنها عمل ديكور فيلم درجة ثالثة. بالطبع من المتوقَّع ماذا ستطلب..

سوف تطلب كل ما هو غير متوقَّع.. تنظر والدة «حسن» في بلاهة ولسان حالها يقول: «من أين آتي بتلك الأشياء؟».. بالطبع «أم بيومي» تسألها وهي تعرف الجواب:

- هل تستطيعين الحصول على ما طلبته منك؟

فتتردد الأم قبل أن تجيب:

- بصراحة لا يا سيدتنا.

فتصرخ «أم بيومي» بطريقة جعلت «حسن» يبتسم رغمًا عنه:

- لا يهم، اذهبي لمساعدي وهو سيشتري لكِ كل شيء.

همّت الأم بالخروج، لكنها عادت تسألها:

- هل ستتحسن؟

فهاجت «أم بيومي» وماجت وقالت وهي تزوم:

- السؤال ممنوع، والطلب مرفوع.. وكله على الله.

فاغتاظ «حسن» منها فقال لها من باب «الرخامة»:

- طلب إيه اللي مرفوع؟ هو تليفون؟!

وكزته أمه وقالت له:

- احترم نفسك.. أنت لا تفهم شيئًا.

وجرّته خلفها إلى الخارج.

* * *

ذهب «حسن» مع والدته بجدته إلى الطبيب؛ لأن والده هذه المرة كان مشغولًا بالفعل.. كان يشاهد الألعاب الأوليمبية.. كان يحب مشاهدة السباحة، لكن سيدات.. كرة الشاطئ، سيدات.. ألعاب القوى، سيدات.. كرة القدم.. لا ليست سيدات بل رجال.. لماذا تظن الظن السيئ بوالدك يا «حسن»؟!

كان مشهد المرضى في عيادة الطبيب قريبًا من مركز «أم بيومي» لإخراج العفاريت، مع اختلاف الديكور.

عندما دخلت جدته، سمع الطبيب الأعراض بسرعة؛ لأن هناك جيشًا بالخارج في انتظاره، فقال للأم:

- الشقة المقابلة، قومي بعمل رسم مخ هناك بسرعة وعودي.

- أنا أم أمي؟

نظر إليها الطبيب بدهشة ثم قال بغضب:

- لا.. أمي أنا.. انت اسمك إيه يا ابني؟

- «حسن» يا بيه.

- اذهب بجدتك لعمل رسم المخ وأنصحك تكشف على أمك.

بالطبع كانت الأم تتمتم بغضب.

عندما عادوا إليه برسم المخ، قالت الأم للطبيب مداعبة حتى تلطف الجو بينهما:

- أهو.. بس لا فيه مخ ولا كبدة.

لم يلتفت إليها الطبيب، بل قال لـ«حسن»:

- هناك كهرباء زائدة في المخ هي السبب في نوبات الصرع التي تصيبها.. سوف أكتب لها بعض الأدوية ويجب أن تُبعد هذه السيدة عنها.

خرجت الأم تسب وتلعن الطبيب، فقال لها «حسن»:

- صدقت أنها مريضة ولا يوجد عفريت ولا عمل؟!

- أنت لا تفهم شيئًا.. العفريت هو السبب في هذه الكهرباء الزائدة.

- على أساس أنه عفريت من شركة جهنم لتوليد الكهرباء؟!

كان المهم بالنسبة إليها أن يكون العفريت السبب في النهاية.

الإمام

الحر شديد.. أصبح الصيف قاتلًا.. كأنك تسير داخل فرن كبير.. إذن لصلاة العصر.. المسجد بجانبي.. سوف أدخل لأصلي وأستريح وأفرّ من الحر قليلًا.. كنت في العتبة أبحث عن هاتف خلوي يستطيع أن يُشغل شريحتين.. لماذا؟

لأن شركات الاتصالات تستغل الناس لأقصى حد.. أصاب بالصداع كلما حاولت التفكير في أفضل نظام لسعر الدقيقة.. كل نظام فيه حفرة يجب أن تقع فيها.. أفضل حل وجدته أن تُكلم كل شبكة من رقم هاتف ينتمي إليها.

المهم أنني ظللت أدور في شارع «عبد العزيز» للبحث عن أرخص هاتف يُشغل شريحتين.. كنت حائرًا بين الهواتف الصينية التي بها كل شيء في الدنيا.. لكنهم يقولون إنها تعطب سريعًا.. وهواتف أخرى هي بالفعل هواتف فقط لكنها تعيش طويلًا.. حتى حان موعد أذان العصر حسب التوقيت المحلي لمدينة القاهرة، وعلى المقيمين خارجها مراعاة فروق التوقيت.. حفظتُها من إذاعة القرآن الكريم.

دخلت المسجد، خلعت الحذاء.. عندما خلعت الجورب ووضعته على أنفي بحركة لا إرادية كعادتي شعرت بالغثيان.. سوف أدفن هذا الجورب عندما أعود للبيت.. لا أعرف لماذا يشم الرجال جواربهم بعد خلعها.. ربما هي عادة قديمة محفورة في الوجدان الجمعي للرجال.. ربما كانت من أيام الفراعنة.. وهل كانت هناك جوارب على أيامهم؟

لم أتوضأ فقط.. بل استحممت بالماء تقريبًا.. صليت ركعتين تحية المسجد ثم جلست أستند بظهري على المنبر أنتظر الصلاة.. المروحة فوقي تشعرني بالنعاس.. لو لم تُقَم الصلاة الآن فسوف أنام مكاني.

كنت قد مددت رجليّ أمامي.. أنزلق رويدًا رويدًا حتى صرت في وضع أقرب للنوم حين رأيته.

دخل من باب المسجد بلحيته الكثة وملابسه التي تنمّ عن الزهد والتقشف.. دخل في وقار.. لم يلتفت يمينه أو يساره.. اخترق الجالسين حتى صار في الصف الأول.. كان يقف أمامي تمامًا وكبّر للصلاة.. لمست رجلي واعتدلت في جلستي.. يبدو أن هذا الرجل إمام المسجد.. أطال الرجل الصلاة.. كان المؤذن يريد أن يقيم الصلاة لكنه نظر للرجل كث اللحية وانتظر.. تحية المسجد ركعتان.. أظنه صلى أكثر من ذلك.. ربما أخطأت أنا أو نسي هو.

أقام المؤذن الصلاة فوقفتُ بالصف الأول بجانب الرجل الوقور الذي لم يتقدم للإمامة.. نظر كل واحد حوله ليتقدم أحد للإمامة.. علمنا أن إمام المسجد غير موجود فبدأ كل واحد يعرض تقديم جاره.. لكني حللت الموقف بسرعة وقدمت الرجل الوقور.. بمجرد أن دفعته برفق وقف مكان الإمام للصلاة.

كبّر الإمام للركعة الأولى.. أنا أعرف أنهم يطيلون في الركعة الأولى لكن ليس إلى هذا الحد.. لقد طالت واستطالت.. بدأت أنسى أنني في الصلاة من الأساس.. تذكرت الهاتف.. الرجل بجانبي يقف على قدم ويريح الأخرى.. متى سيركع؟

أخيرًا ركع.. بالطبع سوف يركع حتى يقصم ظهورنا.. هكذا توقعت لكنه خالف التوقعات.. قام بسرعة ونزل فسجد السجدتين وقام في ثوانٍ ونحن نلهث خلفه.

كانت باقي الصلاة قريبة من الركعة الأولى.. حتى وصلنا إلى الركعة الأخيرة.. حمدت الله.. أنا السبب؛ فأنا من قدّمه للصلاة.. عندما ظننت أنه سيجلس قام إلى الركعة الخامسة.. الناس من خلفه يحاولون تنبيهه لكن من دون جدوى.. سوف يجلس بالتأكيد بعد الخامسة.. لكنه قام للسادسة.. عندما لم يستمع للمصلين خلفه سلم كل من بالمسجد وبقي الإمام يصلي بمفرده.. هذا الرجل لا يبدو طبيعيًا.

بدأ الهرج والصوت يعلو بالمسجد عندما سمعنا صوتًا من آخر المسجد يقول للمؤذن:

- عم «إبراهيم».. من الذي قدَّم هذا الرجل للصلاة؟

بالطبع اختبأتُ بين الناس؛ فأنا لم أفعل شيئًا.. رد عليه المؤذن:

- لا أعرف يا شيخ «طه».

فقال له إمام المسجد معاتبًا:

- أتأخر لأنني كنت أشتري مثلج مياه للمسجد فتجعل «عبيط» مقام المسجد الذي في نهاية الشارع يؤم الناس!

- وأنا أقول لنفسي أين رأيته؟

عرفتُ ساعتها أي هاتف سوف أشتري.

الشرفة

اسمي «صبري عبد المتجلي»، والدي شيخ القرية الفقيرة التي نعيش بها.. أذقته الأمرّين حتى أنهيت تعليمي.. كان يتمنى أن يجدني شيخًا بالأزهر.. هو نفسه فشل في ذلك.. كان شيخًا لكُتّاب القرية بالوراثة.. لم يتعلّم في كلية أو معهد.. كان كل ما يعرفه القرآن الكريم.. يقرأ القرآن مجوّدًا فتعتقد أنك تسمع المذياع.. يحفظه عن ظهر قلب.. يؤم الناس بالقرية.. لكنه لا يفقه إلا القليل مما يقرأ أو يحفظ.. لم أستطع أن أكمل حفظ القرآن.. لم أحفظ نصفه أو ثلثه.. بصراحة حفظت النزر اليسير منه.. ليس لأني لا أريد حفظه.. لكنه لعداوة بيني وبين التعليم بشكل عام.. في النهاية حصلت على دبلوم التجارة كمعظم شباب قريتي، وبالطبع لن أجد عملًا وسأدور على الأبواب أستجدي الوظيفة فلا أجد.. ليس لنا قطعة أرض وأنا ليس لي في الفلاحة على كل حال.. هنا برزت فائدة أن تقرأ القرآن في المآتم.. كان شخصية مهمة من أبناء القرية.. توفيت والدته ولم يكن هناك وقت ليحضروا قارئًا من القاهرة؛ لذلك لم يجدوا غير والدي الذي أبدع وتجلى؛ فهو «عبد المتجلي».. كان ما يشغل بال والدي شيئًا

مهمًا: طلب سيطلبه من الرجل بعد العزاء.. ذهب إليه الرجل بعد العزاء ليعطيه أجر ما قرأ.. قال له «عبد المتجلي»:

- أنا أطمع في كرم سيادتك في شيء آخر.

علم الرجل أن والدي سيطلب منه شيئًا مهمًا فأعاد المال إلى جيبه وهو يسأله عن طلبه فقال له والدي:

- الولد «صبري» ابني.. معه دبلوم تجارة ولم يجد عملًا حتى الآن.. هو أكبر إخوته.. لو تجد له عملًا.. أي عمل.. أنا أعرف أن حضرتك عندك الكثير من المعارف.. وربنا يجزيك خيرًا ويرحم السيدة الوالدة ويجعله في ميزان حسناتك.

فلم يعطه الرجل المال ووعده بأن يبحث لي عن عمل.. وبالطبع ذلك سيكون في ميزان حسناته!

* * *

- كيف حالك يا «صبري»؟ «هشام» بيه شخصيًا أوصاني عليك.. لقد وعدته بأن أريحك.

كانت تلك الكلمات التي قابلني بها مدير الوحدة المحلية التابعة لها قريتنا.. منذ ذلك اليوم وأنا أعمل موظفًا بالوحدة المحلية.. طبيعة عملي؟ لا أعرف حتى الآن.. لكني تعلمت كيف أنهي للناس مصالحهم نظير مكافأة أو هدية.. تقول رشوة؟! أعوذ بالله! وهل أقبل هذا على نفسي؟

حتى أنا ابن الشيخ.. المهم.. أنا لست بطل القصة، بل بطلها الصول «عماد»، أحد أبطال حرب أكتوبر، الذي كل همه أن يبني بيتًا له شرفة بارزة.

* * *

دخل الصول «عماد» إلى الوحدة المحلية يبحث عن «صبري» الذي كان يعرفه لأنهما من القرية نفسها.. وجده جالسًا على مكتبه فأقبل عليه في فرح وهو يقول:

- كيف حالك يا «صبري»؟

رد عليه «صبري» بتوتر:

- الحمد لله.. كيف حالك أنت يا عم «عماد»؟

لم يكن الصول «عماد» ودودًا في يوم من الأيام؛ لذلك توجّس «صبري» منه ريبة.. كان «عماد» يرى نفسه أفضل من كل مَن بالقرية.. لقد حارب من أجلهم وهم نائمون.. إنه شجاع وهم جبناء.. إنه ذكي وهم أغبياء.. كان ضابط صف في أثناء الحرب.. وضباط الصف - لمن لا يعرفون - هم حلقة الوصل بين الجنود والضباط، أي أنهم أعلى من الجنود درجة وأقل من الضباط رتبة.. كان «عماد» يرى أنه هو من يفعل كل شيء والضباط لا يفعلون أي شيء.. كان لسان حاله يقول: لولاي لما فعلتم أي شيء.

جلس «عماد» أمام المكتب الذي يجلس عليه «صبري» وقال له:

- أريد منك خدمة.

ردَّ عليه «صبري» على الفور:

- أمرك يا عم «عماد».

فقال له «عماد»:

- عندي قطعة أرض أريد البناء عليها.

تلفَّت «صبري» حوله ومال عليه وهو يسأله بصوت هامس:

- زراعية أم دخلت كردون المباني؟

فأجابه «عماد»:

- كردون.. سأبيع نصفها وبثمنه أبني على النصف الآخر.

اعتدل «صبري» في جلسته وقال له:

- ما دامت «كردون» لن تكون هناك أي مشكلة.. سوف تتقدم بطلب بناء وتأتي بموافقة من مديرية الزراعة وشهادة من الجمعية الزراعية بأن الأرض دخلت «كردون».

فسأله الرجل بخوف:

- وكم المدة التي سوف تأخذها هذه الإجراءات؟

نظر «صبري» إلى السقف وهو يقول:

- ربما عشرة أيام.

فقال له الرجل:

- كثير.. ألا يمكنك أن تتصرف؟

- ممكن.. لكن...

- تصرف وأنا تحت أمرك في أي مصاريف.

فقال له «صبري» بورع الزّهّاد وتعفف النّسّاك:

- والله أنا أخدمك بعيني.. لكن الناس أصبحت لا تفعل أي شيء لله.. ما سآخذه منك سأعطيه لمن سينهي الأوراق بسرعة.

- سأعطيك ما تريد، لكن المهم أن أنتهي من البناء بسرعة.. وربنا يجعله في ميزان حسناتك.

ألا يوجد أي شيء يفعله الناس في ميزان السيئات؟!

* * *

بعد ذلك اللقاء بيومين كانت الشهادة المطلوبة من مديرية الزراعة بين يدي «عماد» الذي فرح بها وقال لـ«صبري»:

- شكرًا يا «صبري».. ربنا يكرمك.

فرد عليه «صبري» بتواضع:

- أي خدمة يا عم «عماد».. الموظف الذي كتب الشهادة كان يريد أن يأتي ويعاين لولا أنني ضمنتك.. كان سيؤخرنا أيامًا.

بالطبع لم يكن «عماد» يعلم أن «صبري» قد أخذ نصف المال الذي أعطاه إياه كي يعطيه للموظف الذي قام بعمل الشهادة.. قال «عماد» فرحًا وهو يمسك بالشهادة:

- الآن يمكنني البناء.

ضحك «صبري» وقال له:

- بناء ماذا يا عم «عماد»؟! أمامك إجراءات أخرى.

نظر إليه «عماد» بضجر وقال له:

- هناك شيء آخر غير الشهادة؟!

رد عليه «صبري» بجدية:

- نعم.. يجب عمل الرسومات المعمارية والإنشائية للمبنى وشهادة إشراف هندسي من مهندس نقابي يكون مسئولًا عن البناء.

فسأله «عماد»:

- وهل حكاية المهندس هذه ضرورية؟ سوف يقوم المقاول بعمل كل شيء وينتهي الأمر.

هزّ «صبري» رأسه نافيًا وهو يقول:

- يجب أن يكون مهندسًا، وهو المسئول عن البناء واستخراج الشهادات الهندسية والحسابية التي يكون بها عدد الأعمدة الخرسانية و...

قاطعه «عماد» صارخًا:

- كفى.. كفى.. ألا يمكنك أن تجد لي واحدًا؟

فسأله «صبري»:

- واحد ماذا؟

- واحد مهندس.

- يمكنني، لكن الأمر سوف يتكلف بعض...

- لا يهمك المال.. أنا تحت أمرك.

قال له «صبري» الزاهد:

- والله أنا أقوم بذلك خدمة من أجل حبي لك.. والله على ما أقول شهيد.

كادت الدموع تنهمر من عيني «عماد» وهو يقول:

- ربنا يعطيك على قدر نيتك ويجعله في ميزان حسناتك.

* * *

جاء المهندس الذي اتفق مع «صبري» أن يطلب من «عماد» ضعف ما يأخذ ويعطي النصف لـ«صبري».. قام بقياس الأرض وظل يكتب بعض الأرقام في مفكرته ثم قال لـ«عماد» دون النظر إليه:

- سوف تكون نهاية البناء هنا.. أنت تعلم أننا يجب أن ندخل مترًا على الأقل عن الشارع.

قال له «عماد»:

- لا أريد أن أدخل هذا المتر.

نظر إليه المهندس بملل وقال له:

- كل من يريد البناء لا يريد أن يترك هذا المتر للشارع، لكنه القانون.. لو بنينا مخالفين لن يعطوك التراخيص.

فقال له «عماد»:

- سوف أدفع أي مبلغ حتى لا أدخل هذا المتر.

تدخَّل «صبري»، حلَّال العقد، وقال له:

- لكن هذا الأمر سوف يكلفك الكثير.. سوف تظل تدفع لكل من يأتي للتفتيش عن المخالفات.

رد الرجل بإصرار:

- لا يهم.. المهم أنني لا أريد أن أدخل هذا المتر.

جعلت لهجة الرجل المصرّة «صبري» يسأله:

- الأرض واسعة، وهذا المتر لن يفرق معك أي شيء.. لماذا هذا الإصرار على البناء دون الدخول هذا المتر؟

رد عليه «عماد»:

- سوف تعرف فيما بعد.. المهم أنني لا أريد ترك هذا المتر.

ثم قال للمهندس:

- واعمل حسابك.. أريد الشرفة في الدور الثاني شديدة البروز.

رد عليه المهندس:

- ألا تهمك التكلفة؟

فرد عليه «عماد»:

- لا يهمك أي شيء.

فقال له المهندس:

- سوف يكون البناء مخالفًا.

فنظر «عماد» إلى «صبري» وقال:

- أي مشكلة سوف يقوم «صبري» بحلها وربنا يجعله في ميزان حسناته.

فنظر «صبري» إلى الأرض في ورع وتواضع.

* * *

- أنا أعرف أنني دفعت ضعف ما كان المفروض أن أدفعه في بناء هذا البيت.

قالها «عماد» لـ«صبري»، الذي جلس معه في شرفة بيته الجديد ليهنئه بتمام بناء البيت.. قال له «صبري»:

- وما الذي دفعك لصرف تلك المصاريف كلها؟

قال له «عماد»:

- هل تلاحظ أين نجلس؟

رد «صبري» متعجبًا:

- في الشرفة!

فقال له «عماد» ضاحكًا:

- ليست أي شرفة.

نظر إليه «صبري» محتارًا؛ فهو لم يفهم كلام الرجل.. هذه الشرفة كأيِّ شرفة.. ما الفارق بينها وبين غيرها؟!

استطرد «عماد»:

- هذه الشرفة بالذات في الطابق الثاني.. عندما أصررت على عدم ترك المتر للشارع وبناء الشرفة بارزة، هذا لتصير كأنها في منتصف الطريق.

فسأله «صبري»:

- وما الذي ستستفيده عندما تكون شرفة الدور الثاني في منتصف الطريق؟

فأجابه «عماد» وهو يبتسم بغلٍّ:

- حتى يمر الناس من تحت قدمي وأنا جالس بها.

منذ ذلك اليوم ولا يمر «صبري» من تحت بيته إلا ويراه جالسًا بها.

لقاء مع الكوكب

كانت المذيعة متوترة؛ فهذا أول لقاء لها بمدرب التنمية البشرية واختصاصي الطاقة الحيوية المشهور.. الأستاذ العظيم الذي يُشار إليه بالبنان.. «سليمان الكوكب».. بالطبع لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي لكنه، كما يقولون، اسم الشهرة.. كانت القناة الفضائية التي تعمل بها هذه المذيعة قد فُتحت حديثًا.. كما هو المعتاد.. أحد رجال الأعمال الذين لا يجدون ما يفعلون بأموالهم أو يريدون غسلها أو المشاركة في الحياة السياسية قام بفتح هذه القناة.

«هناء»، المذيعة، تعدِّل من ثيابها بمعدل مرة كل فيمتو ثانية.. من الجيد وصول العلم إلى هذا الحد في القياس.. ترفع نفسها قليلًا عن الكرسي وتحاول أن تنزل جيبتها التي بالكاد تصل إلى ركبتيها.. تنادي على مسئول الزينة والمساحيق الذي يريد أن يُدخل قلم الكحل في عينها وينتهي منها.

- هل المكياج مضبوط يا «سيد»؟

يرد عليها بضجر:

- يا مدام «هناء».. هذه المرة الألف.. والله العظيم حضرتك مثل القمر في ليلة البدر الصافية.

كان سيقول لها شعراً حتى تتركه في حاله.. ردت عليه باستعلاء:

- أنا أعرف أنني جميلة.. لكن أحيانًا المساحيق لو لم توضع بطريقة سليمة تخفي هذا الجمال.

ضرب «سيد» كفًا بكف وتركها دون الرد عليها.. وفجأة بدأت حركة غير عادية.. لقد وصل الأستاذ «سليمان».

كان صاحب القناة يريد أن يرفع نسبة مشاهدة القناة؛ لذلك تعاقد مع الأستاذ «سليمان» على تسجيل حلقتين أسبوعيًا.. وقد وافق بعد عناء وأخذ مبلغًا من تلك المبالغ التي كنا نظن أن من يتاجر في المخدرات فقط من يمكنه الحصول عليها في تلك المدة القصيرة.

دخل الأستاذ «سليمان» على عجل فلم يسلِّم على أحد.. جلس أمام «هناء» في تجهم وقال لها:

- هيا بنا نبدأ بسرعة.. عندي تسجيل في قناة أخرى وحلقة على الهواء في غيرها.. ما اسمك؟

ردت عليه «هناء» بتوتر:

- «هناء».. هيا نبدأ الآن.

تسمع في سماعة الأذن تعليمات المخرج ويبدأ العد التنازلي.

- أعزائي المشاهدين.. معنا اليوم مفاجأة القناة كما وعدناكم.. الرجل الذي غيّر الكثير من المفاهيم و...

قالت الكثير من الأشياء التي لن يفهم المشاهد معظمها، لكن ما سيصل إلى ذهنه عظمة وجمال وحلاوة هذا الرجل، وبالطبع أهميته..

ابتسم «سليمان» في تواضع لأنه عرف أن صورته سوف تظهر وهي تقول:

- الأستاذ «سليمان الكوكب».

كانت تقولها بطريقة «الراقصة فيفي» فيعلو التصفيق في الحال..

قال «سليمان» وهو يضع كفه اليمنى على اليسرى كأنه هندوسي في وضعية الدعاء:

- أنا متشكر جدًا على هذه المقدمة الجميلة التي لا أستحقها.

فقالت له «هناء»:

- كيف تقول هذا يا أستاذ «سليمان»؟ أنت جميل.. يا سلام على التواضع.. هذا أول ما سنتعلمه من حضرتك في هذه الحلقة.. والآن مع فاصل إعلاني.

كانت الحلقة مسجّلة؛ لذلك سوف توضع الإعلانات فيما بعد..

هدأت «هناء» قليلًا ثم قالت:

- عُدنا بعد الفاصل وأول شيء نسأل عنه الأستاذ «سليمان»: ماذا تعني كلمة تنمية بشرية؟

نظر إليها «سليمان» بوجد حتى ظنت أنه سوف يقول لها: «أنا بحبك يا (هناء)»، لكنه خيب ظنها وقال:

- التنمية البشرية هي عملية زيادة القدرات والخبرات التعليمية للإنسان.. هذه العملية سوف تعمل على زيادة إنتاجه في عمله.. تحسين حالته النفسية وعلاقاته الأسرية.. زيادة دخله.. تحسين حالته الصحية.. التخلص من مشكلة ازدحام المواصلات.. تطبيق نظام ديمقراطي سليم وانتخابات نزيهة.. تحقيق التوازن الاجتماعي المنشود.. الوصول إلى معدلات نمو تعدل (المعدلات المعدلة للمعدل العالمي) المعمول به طبقًا للنشرة الصادرة من مكتب العمل اليومي بالمنظمات العالمية...

ظل «سليمان» يتحدث دون توقف حتى انتهت الحلقة فنظر إلى ساعته فجأة وقال للمذيعة بلهجة حادة لا تتناسب مع اللهجة الناعمة التي كان يتحدث بها:

- لقد انتهى وقت الحلقة.

كان يعرف أن الزيادات سوف يتم التخلص منها قبل عرض الحلقة، فقالت له المذيعة:

- حسنًا يا أستاذ «سليمان».. سوف ننهي الحلقة.

عدَّلت «هناء» من وضعها وتنحنحت قبل أن تقول:

- للأسف أعزائي المشاهدين.. لقد انتهت الحلقة سريعًا.. في نهاية الحلقة نريد أن نقول للمشاهدين في نهاية كل حلقة كبسولة نجاح.. ما كبسولة اليوم؟

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول:

- العمل التطوعي.. مفتاح شعور الإنسان بالسعادة.

صفقت المذيعة وهي تقول:

- الله عليك يا أستاذ «سليمان».. بهذه الكلمات العذبة الجميلة التي هي أغلى من الذهب نختم حلقتنا.. «باي باي».

نظر إليها «سليمان» بغضب وقال لها:

- «باي باي مين يا أختي؟».. هل تعتقدين نفسك في برنامج الأغاني التي كنت تقدمينه؟ سوف أذهب الآن؛ لأن ليس عندي وقت.. سجلي آخر جملة مع نفسك وأغلقوا الحلقة بطريقة جدية ومحترمة، وإلا والله العظيم سوف أجعل أيامكم سوداء.

* * *

عندما خرج «سليمان» من الاستوديو الخاص بالقناة ليذهب إلى غيرها، استوقفه شاب تظهر عليه علامات الهدوء والأدب، يرتدي قميصًا

أبيض وبنطالًا أسود.. كان كأنه خارج من أحد أفلام الأبيض والأسود بسوالفه ومظهره العام.. قال له الشاب:

- حضرتك أستاذ «سليمان الكوكب»؟

رد عليه «سليمان» بضجر:

- نعم أنا.. ماذا تريد بسرعة؟

اندهش الشاب لهذه الطريقة واختفت الابتسامة التي كانت تعلو وجهه في بداية حديثه.. قال له:

- أنا مُعد في أحد برامج قناة جديدة اسمها «بكرة شباب».. فكرة القناة قائمة على مجموعة من الشباب.. نريد تقديم مجموعة من البرامج الهادفة والمفيدة البعيدة عن السياسة أو الحزبية.. نريد رفع مستوى الناس الفكري العام والناس بعد ذلك هي التي تبحث.. حضرتك بالطبع تعلم...

قاطعه «سليمان» بحدة:

- يا بني ماذا تريد؟ هل ستحكي لي قصة حفر قناة السويس؟

ابتلع الشاب الإهانة للمرة الثانية وقال له:

- نريد تسجيل حلقة مع حضرتك.

نظر إليه «سليمان» باحتقار من رأسه حتى قدميه ثم قال له:

- هل تستطيع قناتكم دفع ثمن الحلقة لي؟

تلعثم الشاب قبل أن يقول:

- لقد سمعنا عن أجر حضرتك وهو كبير، لكن...

- لكن ماذا؟ ما دمت تعرف أجري وتعرف أنك لن تستطيع دفعه، فلماذا استوقفتني؟

فقال له الشاب كأنه يستجديه:

- كنا نطمع في كرم حضرتك تعمل لنا تخفيضًا.. يمكننا دفع نصف الأجر.. اعتبر نصف الأجر الذي ستتركه تطوعًا من حضرتك للقناة ومشاركة في هذا المشـ...

قاطعه «سليمان» وهو يضحك بسخرية:

- «مشروع مين والناس نايمين؟».. تعالَ في موسم التخفيضات وأنا أعطيك الحلقة بنصف السعر.. اذهب يا بني «حوّش حق الحلقة وابقى تعالى».

وترك «سليمان» الشاب يكلم نفسه في تعجب وحيرة؛ لأنه لم يكن يعرفه إلا من خلال شاشة التلفاز.

لكن ما لم يعرفه الشاب أن «سليمان الكوكب» تخرّج في الأصل في معهد..

والآن يعطي كبسولات النجاح للناس.. من الجيد أنها كانت كبسولات وليست شيئًا آخر.

نعي

انتقل إلى رحمة الله تعالى سيادة المستشار «محمد المنسي»، رئيس محكمة النقض الأسبق، زوج المستشارة «هناء المنسي» وأخو كلٌّ من: المستشار «عبد الحميد المنسي»، رئيس محكمة النقض الحالي، والمستشار «محمود المنسي»، نائب رئيس المحكمة الإدارية، والمستشارة «سناء المنسي»، المستشارة بمحكمة الأسرة، ووالد كلٌّ من: «أحمد المنسي»، محامٍ عام، وكيل إدارة التفتيش القضائي، و«سامح المنسي»، رئيس نيابة جنوب، وعم كلٌّ من: «زكريا المنسي»، وكيل نيابة، و«يحيى المنسي»، وكيل نيابة، و«سوسن المنسي»، وكيل نيابة، و«حسن المنسي»، مساعد نيابة، وخال معاون النيابة «سعيد المنسي»، وجد «ليلى المنسي» و«مازن المنسي»، الطالبين بكلية الحقوق، و«منسي المنسي»، الطالب بكلية الهندسة.

الفهرس

لماذا تركت القراءة؟ 7

«لوله» 17

بلا صوت 41

القصف 49

ليس اليوم 57

موائد القمامة 65

سيارة الجمعية 77

آخر الخط 83

حياة مزدوجة 89

التسول.. على أبواب الجامعات الخاصة 97

جمعية الأحلام 103

الدمية 113

الحافز 137
الميراث 143
الشك 149
نظرة السماء 159
من أجل التشريفة 167
تأشيرة الحياة 175
عشرة جنيهات 183
نهاية الخدمة 191
الكشاف 197
عفريت 201
الإمام 207
الشرفة 211
لقاء مع الكوكب 221
نعي 229

أعمال الكاتب

- التشريفة (مجموعة قصصية)
- حالة توحد (رواية)
- استجواب (رواية)
- الحشّاش (رواية)
- رقصة الشيخ (رواية)

تحت الطبع

- الجزء المتمم لرواية حالة توحد

***

صفحة الكاتب على الفيس: أدبيات- محمود أمين

https://www.facebook.com/adabiat.mahmoud

صفحة دار بصمة على الفيس: دار بصمة للنشر والتوزيع

https://www.facebook.com/darbasma

التشريفة

السيارة التي ستمر ستضرب بالنار فورا .. عاد إلى سيارته دامع العينين مستسلما لقضاء الله ، وفجأة فتح الطريق دون أن يمر أحد .. وعندما وصل إلى المطار نظر في حسرة .. وأجهش في البكاء ..
(كان نفسي أزور بيتك يارب)

تأليف: عبد الرحمن حافظ

BAOMA
للنشر والتوزيع